محاضرات و دروس في

الحياة العلمية و الثقافية
في غرب إفريقيا و مملكة مالي الإسلامية

محاضرات خاصة بطلبة الماستر تاريخ
تخصص إفريقيا جنوب الصحراء

إعداد الدكتور :نور الدين شعباني

اولا: غرب إفريقيا

1 – الحواضر االكبرى في غرب إفريقيا (تمبكتو ، جني، غاو ، ولاتة ، سوكوتو وتكدا)

– مظاهر الحياة العلمية والثقافية في حواضر غرب إفريقيا .

1 – مؤسسات التعليم ووسائله.

2 - مظاهر الحياة العلمية والثقافية في غرب إفريقيا .

3.المراسلات العلمية بين حواضر غرب افريقيا و دورها العلمي و الثقافي

ب – علماء الحواضر وإنجازاتهم العلمية .

ج – أثر الحياة العلمية على تطور غرب إفريقيا .

1 – أثر الحياة العلمية على نظام الحكم والعمران .

2 - أثر الحياة العلمية على الحياة السوسيو – اقتصادية .

مقدمة

إن الاطار الجغرافي المعني هنا بالدراسة هو المنطقة الممتدة من الحواف الجنوبية للصحراء الى غاية منطقة السفانا جنوبا، و من المحيط الاطلسي الى غاية بحيرة تشاد شرقا، اما زمنيا فنخص بالدراسة الفترة الممتدة من القرن 11 الى غاية القرن 16م، فلقد عرفت هذه المنطقة بعض المراكز التاريخية و الحضارية التي كان لها تاثير كبير في تاريخ المنطقة، وذلك بسبب احتضانها لمراكز سياسية و عواصم ممالك عريقة و امبراطوريات قوية، بالاضافة الى تحولها الى مراكز اشعاع فكري و ثقافي.

عرفت هذه المنطقة الإسلام منذ القرن الحادي عشر للميلاد/5هجري، عن طريق التجار الاباضيون أولا، حيث استقر التجار الاباضيون و حتى صفريو سجلماسة في أهم المراكز التجارية في بلاد السودان من اجل جلب ذهب السودان المجلوب من الأدغال الإفريقية، فاحتكوا بكبار تجار إفريقيا الغربية و ملوكها، و تمكنوا من فرض انفسهم في تلك المجتمعات بفضل حسن سيرتهم و صدقهم و أمانتهم و حسن تدبيرهم حتى ان البكري خلال القرن العاشر يذكر ان ملك مالي الوثني كان يستعين بهم في تدبير شؤون دولته، فعين منهم الكتاب و الأمناء و الوزراء، كما خصص لهم مدينة بأكملها للجالية الإسلامية بعاصمته تضم اثنتي عشر مسجدا فيه الراتبون و القراء و الأئمة و المؤذنون و حملة العلم[1].

و تمكن هؤلاء التجار إذا من إقامة جاليات إسلامية عملت على نشر الإسلام في تلك الأراضي الإفريقية، فتحولت تلك المراكز التجارية مع مرور الوقت إلى حواضر علمية بسبب تجمع العلماء و الفقهاء، ثم بناء المساجد التي تحولت إلى مراكز تعليمية و جامعات إسلامية و مراكز إشعاع للعلم و الثقافة [2].

أولا: أهم الحواضر التاريخية و العلمية في غرب إفريقيا:

---

(1) البكري (ابو عبيد) ، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، و هو جزء من كتاب المسالك و الممالك، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، مصر، د ت، ص 175.

(2) قداح نعيم، افريقيا الغربية في ظل الإسلام ،مديرية التاليف و الترجمة لوزارة الثقافة و الارشاد القومي،مصر ، د ت، ص135.

أ. الحواضر لغة:

ان كلمة حواضر لغة هو اسم جمع مفرده حاضرة، و تعني القوم الحضور، فنقول حضَر البدويُّ: أقام واستقرّ فلم يعد يترحّل. و بهذا فهي تعني مكان تجمع السكان الحضر أي عكس البادية، و هي بالمعنى الحديث تعني المدينة.

فالحواضرeverywhere التاريخية الافريقية هي تلك المدن الو التجمعات السكانية التي احتضنت في تاريخها مراكز سياسية و تجارية و ثقافية، مما جعلها مراكز اشعاع للعلم و الثقافة في غرب افريقيا.

ب. اهم الحواضر:

1. تنبكتو:

تعد مدينة تنبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/ 11م، على يد قبائل التوارق المعروفين باسم (مقشرن)[1]، الذين بنوها في مكان يبعد بتسعة أميال عن نهر النيجر،[2]. ولقد اصبحت المدينة بفضل موقعها المميز تستقطب التجار والعلماء وأصحاب الأموال من مصر، و فزان، وغدامس، وتوات، ودرعة، وفاس، وغيرها[3]. فبعد أن كانت في البداية مجرد مخيم للشتاء قرب النيجر، تطورت بعد ذلك كمركز تجاري، وعوضت ولاتة التي كانت تلعب هذا الدور قبلها، حيث كان الفضل للملك منسا موسى في تحويلها من مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة 11 / م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14 م [(4)] عندما قرر منسا موسى الى اعادة تهيئتها فأصبحت بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتنبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين

---

(1) السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان. طبعة هوداس، باريس 1964م، ص 20.

(2) البستاني (بطرس)، دائرة المعارف البستاني. بيروت، ،1886 مج 6، مادة تنبكتو.

(3) **السعدي**، نفس المصدر، ص 21.

(4)**السعدي**، نفس المصدر ، ص .22.

قبل ذلك،[1] كما عرفت توافد السودانيين من كل جنس، فتكونت جالية من التجار الذين طلبوا الحماية من زعماء مالي[2]، فأصبحت على يد منسا موسى مدينة متطورة، و عين عليها دار الإمارة، بعد أن عمرها وجعل فيها الدكاكين والصناعات، وجلب إليها البنائين، حيث يعد المؤسس الحقيقي للمدينة و ذلك عام 610هـ/ 1213م [3].

و لما ضمها الإسقيون الى مملكة سنغاي، اكتسبت مكانة تجارية اكبر و ذلك بفضل موقعها الممتاز في منحنى نهر النيجر، فأصبحت أقرب محطة سودانية للقوافل القادمة من المغرب، كما أن موقعها على النيجر جعلها حلقة اتصال بين تجارة المغرب وتجارة السودان، وخاصة تجارة الذهب والملح [4].

كما احتضنت مكانة علمية و ثقافية بفضل السمعة التي نالتها جامعاتها مثل جامع جنجربير و جامع سيدي يحي التادلسي، و التي كانت تستقطب طلبة العلم و العلماء من كل حدب و صوب، و عرفت نهضة علمية قادتها بعض البيوتات العلمية مثل عائلة اقيت وعائلة بغيغ و عائلة اندغمحمد، فأنجبت لنا عدة مؤلفات و مؤلفين أشهرهم احمد بابا التنبكتي و عبد الرحمان السعدي، و محمود كعتي. حتى اصبحت اكثر شهرة من العاصمة جاو، و هو ما جعل المسكتشفون الاوربيون يتنافسون حول اكتشاف هذه المدينة الى ان اكتشفها روني كايي الفرنسي سنة 1828م و اطلق عليها اسم تنبكتو العجيبة.

2. جني:

يطلق عليها التجار الأفارقة اسم كناوة، بينما يسميها أهلها بجني، وهي أسم مدينة ومملكة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل في الصحراء، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا، ولها جزء على المحيط حيث يصب نهر النيجر[5]. لقد كانت

---

(1) Cornevin(Robert et Mariane), Histoire de l'Afrique, des origines à la deuxième guerre mondiale, 4éme éditions. Petite bibliothèque Payot, Paris, 1964. p164

(2) Canal (jeans suret) , Afrique Noire. 3ème édition, éditions sociales, Paris, 1968, P181.

(3) حسن الوزان، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983 م. **ص 165.**

(4) الشيخ (أمين عوض الله)، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتي نهاية ق16م،ص 82.

(5) حسن الوزان، المصدر السابق، ص 162.

مدينة جني في البداية تابعة لمملكة مالي ثم ضمتها مملكة سنغاي الى حاضرتها في عهد الملك سني علي، بعد حرب مع جيش مالي [1].

ودخل أهل جني الإسلام خلال نهاية القرن السادس للهجرة/ 12م، وكان اسم السلطان الذي أسلم وأسلم أهل جني بإسلامه، هو (كنبر) الذي يحكي بأنه عندما عزم على دخول الإسلام أمر بجمع أربعة آلاف ومائتي عالم، وأسلم على أيديهم، وأمرهم أن يدعو الله تعالي بثلاث دعوات لتلك المدينة وهي:

1. « كل من هرب إليها و وجد في وطنه ضيقا وعسرا أن يبدلها الله له سعة ويسرا.
2. أن يعمرها بغير أهلها أكثر من أهلها.
3. أن يسلب الصبر من الواردين إليها للتجارة في ذات أيديهم لكي يملكوا فيها فيبيعوها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها» [2].

وبالفعل فقد أصبحت منذ القرن السابع للهجرة/ 13م، مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقي الطرق، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما يحميها من غارات المعتدي، وبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح. ففيها كان يلتقي أرباب الملح القادمون من تاغزة، وأرباب الذهب من أودغست، فاستقطبت إليها التجار من كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طول أيام الأسبوع ، وكانت تستعمل فيها حتي القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تنبكتو إلى جني، وبالتالي أصبحت جني حلقة وصل بين تجارة الذهب وتجارة الملح[3].

3. غاو:

تناولت المصادر العربية اسم هذه المدينة باختلاف كبير، فنجدها كوكو عند الإدريسي وحسن الوزان، ويذكرها المهلبي بكاوكو[4]. وعلى كل حال فإن مدينة جاو تعد من أشهر مدن

---

(1) قندوز قويدر، الدولر الحضاري لمدينة جني ما بين القرنين 8و14هـ/10 و 16م، مذكرة لنيل شهادة ماستر في التاريخ تخصص دراسات افريقية، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مكليانة، السنة الجامعية 2017/2016م، ص31.

(2) **السعدي**، المصدر السابق، ص 12.

(3) **الشيخ (أمين عوض الله)**، المرجع السابق، ص 84.

(4) يقول المهلبي: « بأن كاوكاو هو اسم شعب واسم مدينة سودانية في نفس الوقت »

Mauny (R) : Recueil des Sources Arabes. P 77.

السودان، فهي تقع على ضفة نهر النيجر من جهة الشرق[1]، وازدادت شهرة عندما أصبحت عاصمة مملكة سنغاي. فهي كانت تمثل بالنسبة لشعب سنغاي، ما كانت تمثله تنبكتو لغيرها من دول السودان الغربي، من نواحي الثقافة والتجارة والإدارة الحكومية[2]. وقد اكتسبت تلك الأهمية بوجودها في أحد الطرق التي تربط مصر بغانة، وهو ما جعلها تشارك في ذلك النشاط التجاري الذي جلب لها الرفاهية. لكن ذلك الطريق الذي أهمل خلال القرن الرابع للهجرة / 10م، جعل جاو توجه تجارتها إلى الشمال من خلال تادمكة وتوات باتجاه المغرب، ومن خلال الهقار وغات باتجاه مصر[3].

4. ولاتة:

يصفها بن بطوطة، الذي يذكرها بايوالاتن، بأنها أول عمالة السودان، وأنها تبعد عن سجلماسة بمسيرة شهرين[4]. ولعل هذا الموقع هو الذي جعلها مركزا تجاريا استقطب اهتمام التجار، ذلك أن تجار غانة الملقبين بـ(الونغارة)، هم من أسسها في مكان يدعي (بيرو)، وذلك عام 621هـ/ 1224م، مباشرة بعد نهب مدينة كومبي صالح[5].

وقد تم اختيار هذا المكان لأغراض أمنية، فوجودها على الحدود بين السفانا[6] والصحراء الكبرى، وعلى بعد شهرين من سجلماسة، جعلها المدينة السودانية الأقرب من بلاد المغرب،

---

(1)**الإدريسي (أبو عبد الله الشريف)**، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق: إسماعيل العربي.الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م.، ص 44 -، **ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي):** كتاب الجغرافيا. تحقيق إسماعيل العربي.الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982م، ص 93.

(2) **دافيد سون (بازيل)** : إفريقيا تكتشف من جديد. ترجمة، نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت، ص 48.

(3) **Mauny (Raymond),** Les Siècles obscurs de L'Afrique noire. Librairie Fayard. 1970. P 167.

(4) المصدر السابق، ص 676.

(5) **Cuoq (Joseph)** , Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origines à la Fin du XVIéme Siècle, Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris - 1984., p 90.

(6) **السفانا** هو إقليم نباتي، تنبت فيه الحشائش الكثيفة العالية، كما تنمو فيه الشجيرات القصيرة والأشجار الباسقة مكونة غابات مترامية الأطراف، لكنها أقل كثافة من الغابات الاستوائية. (روكز (يوسف): إفريقيا السوداء، سياسة وحضارة.الطبعة ثانية، 1986، ص 18.

كما جعلها هذا الموقع بمثابة مفترق طرق كثيرا ما يعبره التجار، وأهل السودان الذاهبون إلى الحج[1].

فولاته إذن تعد المحطة النهائية لعابري الصحراء، حيث عوضت الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة، والمسيطر على موقعها من طرف عرب المعقل الذين أصبحوا يشكلون خطرا على القوافل [2]. وعندما زار ا بن بطوطة مدينة ولاته، وأقام بها خمسين يوما، كان زعيمها (فربا حسين) تابعا لسلطان مالي، والمدينة تابعة لإمبراطورية مالي، وكانت تحتوي على فنادق، ويتكفل بضيافة التجار المشرف الذي يدعى (منشا نجو)[3].

وبقيت على هذا الوضع إلى غاية الاستيلاء عليها من طرف الطوارق عام 838هـ/ 1433م، الذين فضلوا تطوير تنبكتو على حسابها[4]، حتى إذا زارها حسن الوزان في بداية القرن العاشر للهجرة/ 16م، كانت مملكة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان، وليس لها من الأماكن المسكونة إلا ثلاثة قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل[5].

5. تاكدا:

اشتهرت تاكدا بإنتاج النحاس، الذي يستخرج من مناجمها فيحملون إلى بلاد السودان، بعدما يسبك على شكل قضبان في طول شبر ونصف[6]. ولعل هذا المعدن هو الذي منح تاكدا أهمية تجارية، بالإضافة إلى موقعها في الطريق بين توات وغانة. فهي تبعد عن توات بسبعين يوما، فكانت القوافل تسير منها باتجاه بلاد بورنو حيث تجلب الجواري والعبيد والثياب وتصدرها إلى المغرب[7]. كما كان أهل تاكدا يسافرون سنويا إلى مصر، ويجلبون منها الثياب الحسنة وغيرها، وهو ما انعكس بالرفاهية وسعة الحال على أهلها[8].

---

(1) Cuoq (J): Op. cit, P 91.

(2)**ابن بطوطة(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفى سنة779هـ)**، تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف بالرحلة). دار صادر،بيروت ،لبنان،1992م، ص 676.

(3) نفسه، ص 676.

(4) Cuoq (joseph) , Op.cit, P 91.

(5) المصدر السابق، ج2، ص 162.

(6) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697.

(7) الشيخ (أمين عوض الله)، المرجع السابق، ص 84.

(8) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697.

ثانيا: مظاهر الحياة الثقافية و العلمية في الحواضر الإفريقية:

1. مؤسسات التعليم:

بعد انتشار الإسلام في غرب افريقيا و قيام دول سودانية اسلامية مثل غانة و مالي وسنغاي، تحولت تلك المراكز التجارية و السياسية إلى مراكز علمية بعدما اقيمت بها مساجد تحولت الة جامعات و مراكز إشعاع علمي، حيث استقطبت العلماء و الطلبة من كل بلاد السودان، حيث ذكر السعدي انه بعدما اسلم سلطان جني الذي يدعى كنبر حضر إسلامه 4200 عالم كانوا موجودين في مدينة جني[1]، و هو رقم كبير يدل على أهمية المدينة من الناحية العلمية. و لو أن المقصود بالعالم عند السعدي هو معلم الصبيان، أي حتى معلم في الكتاتيب كان يطلق عليه اسم عالم[2].

إن هذا العدد من المعلمين و القراء المنتشرين في أرياف و مدن مملكة جني يدل أيضا على انتشار التعليم و الاهتمام به خاصة في عهد الاسقيين و هو الفترة التي كان يقصدها السعدي بالدراسة. فالتعليم كان موجودا حتى في الفترات السابقة أي فترة حكم سونديانا كيتا [3]، خلال القرن13م، أين كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف[4].

لكن مع ظهور الممالك السودانية الإسلامية، و ظهور ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية [5].

---

(1) السعدي(عبد الرحمان)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، باريس،1964، ص12.

(2) عز الدين عمرو موسى، دراسات إسلامية غرب افريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، طبعة ثانية، ص115.

(3) اذا اخذنا برواية كل من ابن خلدون و دولافوس فسونديانا يكون قد عاش بين 1190 و 1262م، ذلك أن دولافوس يقول بانه ولد سنة 1190، و انه تولى الحكم سنة 1235 أي بعد انتصاره على الصوصو في معركة كيرينا، بينما يقول ابن خلدون انه حكم 27سنة، و بهذا تكون فترة حكمه بين 1190 و 1262م.

(6) Devey (Muriel) , La Guinée ,Editions Karthala, Paris, 2009.p285.

(5) نور الدين شعباني، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5و10هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012.2013م، ص 279.

وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم الملوك القرآن وبعض شرائع الإسلام واللغة العربية ، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك[1]، ثم تطور التعليم ليشمل علوم اخرى، و مستويات اعلى.

و كانت مؤسسات التعليم في حواضر غرب إفريقيا تمتاز بظاهرة عامة و هي ارتباطها الشديد بالدين، حيث كانت في البداية المدارس مرتبطة بالمساجد و ملحقة بها، فالي جانب كل مسجد كان هناك غرفة او غرفتان لتعليم الأولاد، و هناك أمكنة أخرى ليبيت فيها الطلاب القادمين من البلاد البعيدة، و هناك مساجد خصصت كلها لتلقي العلم كانت تعقد فيها حلقات لمختلف العلوم الشرعية[2].

2.مراحل التعليم:

مع ظهور الحواضر الكبرى في عهد امبراطورية مالي و سنغاي ظهرت معه المؤسسات التعليمية الكبرى ذات المستوى العالي مثل جامع جنجربير و سيدي يحي في تنبكتو و جامع سنكاري في مدينة جني، حيث كانت تمر بمراحل تعليمية تبدأ من الابتدائية إلى غاية المرحلة العليا التي يتخرج منها الطالب عالما.

أ. مرحلة التعليم الابتدائي (الكتاتيب):

قبل الحديث عن هذه المرحلة، تجب الإشارة إلى أنَّ عملية التعليم تختلف جزئياً بين الأقطار الإسلامية، وقد أوضح العلامة ابن خلدون ذلك في مقدمته عندما تحدث عن تعليم الأولاد واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية، حيث قال: "إنَّ تعليم الأولاد للقرآن الكريم شعار من شعائر الدين، أخذ به أهل الملة، ورجوا عليه في جميع أمصارهم، لما يسبق إلى القلوب من رسوخ في الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وبعض متون الأحاديث، وصار القرآن أصل

---

(1)**قداح نعيم**، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م.، ص 160.

(2) **نفسه**، ص ص 158. 159.

التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات...واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للأولاد باختلافهم، باعتبار ما ينشأ من ذلك التعليم من الملكات[1].

وتعد المرحلة الابتدائية أساسية للطلاب، حيث تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما يتزودون فيها بمعرفة مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها،كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية[2]، وعادة ما تضم هذه المرحلة الطلاب صغار السن، بداية من سن الخامسة حتى مرحلة الصبا، وكانت مدة بقاء الطالب فيها تراوح بين الخمسة والستة أعوام في المتوسط؛ يحفظ فيها أجزاء من القرآن الكريم، ويتقن فن الكتابة والخط، ويلمّ بمبادئ اللغة العربية ..وكل ذلك يتم عن طريق الكتابة على الألواح الخشبية .إنَّ هذه المرحلة من التعليم تقوم بها الكتاتيب، وقد اختلفت مسمياتها في إفريقيا الغربية باختلاف قبائلها؛ فقبيلة الولوف تطلق عليها اسم" دارا"،وقبائل بلاد شنقيط) موريتانيا (يعرفونها بـ" المحظرة، أما قبائل التكرور فيدعونها" ديا لجانتي"،في حين تسمي قبائل أخرى معلم الكتاتيب " معالام"، وهو تحريف للفظ معلم[3].

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر[4]. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة[5]. وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي

---

(1) **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، ***مجلة البيان الالكترونية***، العدد228، موقع الكتروني:*http://www.albayan.co.uk*. تاريخ الاطلاع عليه: يوم لخميس 22 جمادى الأول 1439 هـ - الموافق لـ02/08/ 2018م

(2) **باري (محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم)**، المسلمون في غرب إفريقيا ، تاريخ وحضارة.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2007م، طبعة أولى،، ص 105 .

(3) **حسن الوزان**، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الثاني، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983)، ص 263.

(4) **Cuoq (Joseph)** ,Op.Cit. p91.

(5) انظر المصدر السابق، ص 691.

تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري[1].

ب. مرحلة التعليم الثانوي:

فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي،كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة[2]. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري[3]. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق[4].

وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة[5]. بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن[6].

---

(1) **البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)**، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة أولى،1981م،ص 88. ـ السعدي، المصدر السابق،ص 27 .

(4) **باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد ابراهيم)**، المرجع السابق، ص 105

(5) **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص 161 .

(4) **Cuoq (Joseph)** ,Op.Cit. p126.

(5) **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص 161.

(6) **باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)**، المرجع السابق، ص 105 .

ج. مرحلة التعليم الجامعي(او العالي):

تختلف هذه المرحلة كثيراً عن مرحلة التعليم السابقة لها، فهي تعادل ما يُطلق عليه في يومنا هذا المرحلة الجامعية، و الدراسة في هذه المرحلة تتميز بالتعمق في القضايا، والخوض في المسائل التفصيلية والشروح الدقيقة التي ضمتها بعض أمهات المؤلفات الكبيرة التي عرفها المسلمون في ذلك الوقت .ومن أشهر المساجد التي اهتمت بالمرحلة العالية :مسجد سنكري .وتحدثنا بعض المصادر التاريخية أنَّ الأسكيا الحاج محمد كان يخصص أوقافاً لتنفق على الطلاب المتفرغين للعلم والدراسة[1].

و كانت تتم هذه المرحلة في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج[2].

وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.[3]أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.[4]

---

(1) **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، مرجع سابق.

(2) **معتز ياسين**،جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في ***مجلة الوعي الإسلامي***، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد523.

(3) **باري(محمد فاضل) وكريدية(سعيد إبراهيم)**، المرجع السابق، ص 105 .

(4) **معتز ياسين**، المرجع السابق.

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو وجدها تعج بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها[1].

كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى.[2]

عندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي.[3]وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة[4].

كما جذبت جامعة تمبكتو بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ /1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ/1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة.[5] وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال

---

(1)**البرتلي الولاتي**، فتح الشكور، ص 176.

(2) **السعدي**، المصدر السابق، ص 57.، .Yattara el Mouloud ,Op.Cit

(3) **أحمد بابا التنبكتي**، نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1989م، جزءان، ص 608.

(4)المصدر السابق، ص 681.

(5) **معتز ياسين**، المرجع السابق.

الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا[1].

وكان التعليم في جامعة سنكري يشمل المناهج الدراسية التي كانت تتضمن :التوحيد، والتفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العقلية، وغيرها من المعارف التي كانت تشكل في الوقت ذاته الدعائم الأساسية للعلوم الإسلامية .وقد اشتهرت جامعة تنبكت بتدريس المذهب المالكي، الذي كان يقوم بتعليمه علماء ضالعون في مادته، سواء من الإفريقيين أو الزائرين من أساتذة القاهرة وفاس، الذين كانوا يأتون لإلقاء الدروس على الطلاب الذين يفدون على هذه الجامعة من كل مكان من مناطق إفريقيا الغربية المجاورة[2].

3. لتعليم المهني (الحرفي):

رغم قلة انتشار هذا النوع من التعليم واقتصاره على مهمة الخياطة وبعض المهن الحرفية الأخرى؛ كصناعة السيوف والحراب؛ فإنَّ التدريس في هذا النوع كان يتولاه معلمون متخصصون عُرفوا بـ"الشيوخ الرؤساء"، حيث كان التدريس والعمل يتم في بيوت وفي مقر عمل شيوخ المهنة. وقد ذكر المؤرخ محمود كعت أنه يوجد في مدينة تنبكتو وحدها 26 بيتاً من بيوت الخياطين، ولكل بيت من تلك البيوت شيخ معلم، وقد بلغ تلاميذهم ما بين 75 إلى 100 تلميذ[3].

4. الإجازات العلمية و الشهادات:

إن شهادة التخرج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج. و وجدت في الواقع ثلاث درجات للإجازة، هي: شهادة السماع، وتعني أن الطالب تتبّع أقوال العالم وحفظها. وشهادة العرض، أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكاره النصوص ومعرفته

---

(1) نفسه.

(2) **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق.

(3) **محمود كعت**، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس.طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية و الشرقية، باريس، 1964م، ص 180.

شروحها. ثم الإجازة الكاملة، وهي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد وإرجاعها لمصدرها الأول وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون.

وقد تتعدد المواضيع التي يتقنها الطالب ويكثر أساتذته فيها جميعاً، لكن الإجازة لا تعطى إلا في أحوال نادرة، أي عندما يتأكد المدرس أن الطالب متمكن من مادة أو من إتقانها إتقاناً تاماً، ويلاحظ مواظبته على تلك المادة واهتمامه بها، وأيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، وقد يكون على المجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي سيصدره والشهادة التي سيشهد بها [1].

ولا تُعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد، فلم تكن شهادة جماعية، وقد يضم مجلس علمي مجموعة من الطلبة ويحصل كل واحد منهم على إجازة في فن مستقل متمايز، ثم يبقى طالباً عادياً في فن أو فنون أخرى، ويحضر بانتظام حلقات أستاذه فيها.

وتتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس بأنه حضر عليه مواد متعددة لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يحوز له إن كانت للمدرس كتب من تأليفه، وما يحوز له من غيره إن كان الكتاب من وضع شخص آخر. ومما يدل على مدى تحري الأساتذة وحرصهم على الإنصاف ما جاء في إجازة أحمد بابا عن أستاذه محمد بن محمود بغيغ، وما تضمنته إجازته على يد أحمد المقري في مصنفات الأحاديث النبوية الستة بعد أن رواها كلها بالسند السوداني المتصل بروايات واضعي تلك المصنفات، وقد كتبت تلك الإجازة بمراكش في 15 ربيع الآخر عام 1010 للهجري/ 13 أكتوبر 1601م.

ولقد تشابهت الإجازات بين إفريقيا الغربية والمغرب بفضل الاتصال بين علمائهما، وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان المهجرين إلى وطنهم، ويمكن من مراجعة تراجم علماء تنبكتو وفقهاء المالكية السودانيين أن نميز بين نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين: **إجازات خاصة** تهم فناً واحدا أو عدة فنون متحدة الموضوع، **وإجازات عامة** تشمل فنوناً وعلوماً متباينة، ومن أمثلة النوع الأول: الإجازات القرآنية و الحديثية، وكان يراعى فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف روايات حديث. أما الإجازات العامة فتقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه

---

(1) **عبد القادر زبادية**، « القرن 16 وحركة التعليم في تنبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب »، مجلة ***المؤرخ العربي***، العدد 14، (1980)، ص 224.

والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتياً إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانباً كبيراً من حياة الطالب[1].

5. حركة التأليف و المؤلفين:

شهدت الحواضر الثقافية في غرب إفريقيا حركة تأليف واسعة كان وراءها علماء من غرب إفريقيا تكوَّن معظمهم في جامعات السودان الغربي كتنبكتو و جني و غاو، و لقد شملت حركة التأليف ميادين مختلفة نصنفها كما ياتي:

أ.في التاريخ:

الشيخ القاضي(محمد بن محمود كعت)،الذي ولد عام 868هـ/1468م بمدينة تمبكتو[2]، وعاصر السلطان أسقيا الحاج محمد التوري، الذي عاش بين 898هـ و925هـ، وألف كتابه المشهور في التاريخ والمعروف بـ « تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق انساب العبيد من الأحرار»، والذي بدأ بتأليفه سنة 925هـ/1519م. وكان هذا الكتاب من أهم المصادر الخاصة بتاريخ السودان الغربي في عهد الإسقيين، خاصة فيما يتعلق بتمبكتو وأوضاعها، والغزو المغربي لسنغاي، وتخريب تمبكتو، وتدهور حالتها. وقد توفي محمود كعت عام 1001هـ/1593م.[3] وأكمل أحفاده من بعده، أحداث السنوات الست المسجلة بعد ذلك بالكتاب. وتميز كتابه بلغة سلسة، ومعلومات غزيرة[4].

ـ احمد بابا التنبكتي من عائلة اقيت الشهيرة في تنبكتو، كتب أكثر من 400 مؤلف، أشهرها نيل الابتهاج بتطريز الديباج و هو موسوعة تراجم لأكثر من مائة عالم في الفقه المالكي، وكذا كتاب «كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج» وهو مختصر كتابه الأول حيث هذبه وأضاف له حواشي و أسماء أخرى كان قد أغفلها في تطريز الديباج[5]، و لديه كتاب معراج الصعود في حكم مجلوب السود.

---

(1) **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، مرجع سابق

(2) بوعزيز ،المصدر السابق، ص 255.

(3) نفسه، ص 199.

(4) **قداح نعيم**، حضارة الإسلام و حضارة اوربا في افريقيا الغربية، مرجع سابق، 161.

(5) **ليلى صباغ**، أحمد بابا التكروري (963- 1036هـ/ 1556- 1627م)، موقع الكتروني:

ومن المؤرخين الذين أنجبتهم بلاد السودان، عبد الرحمان بن عبد الله السعدي، الذي ولد بمدينة تمبكتو عام 1004هـ/1596م، أي بعد الغزو المغربي لمملكة سنغاي الذي حدث عام 999هـ/ 1591م، وعاش في ظل الحكم السعدي لتمبكتو، حيث عينه الباشا محمد بن عثمان حاكم تمبكتو سنة 1646م ناظرا لخارجيته، فسمح له ذلك المنصب بالتنقل في أنحاء المملكة، فألف كتابه المشهور (تاريخ السودان)، الذي أتمه عام 1063هـ/1655م فكان هذا الكتاب أفضل متمم لتاريخ الفتاش عن تاريخ السودان.

كما عرفت مملكة كانم بورنو حركة تاليف مهمة جدا في التاريخ لعل أهمها مؤلفات احمد بن فرتيوا البرنوي و هو مؤرخ البلاط في إمبراطورية كانم الذي ألف كتاب(تاريخ مي إدريس ألوما وغزواته) وقد كتب هذا التاريخ على حدّ قوله تبعاً لما يراه من تأليف الشيخ الفقيه مسفرمه عمر بن عثمان في عصر سلطانه الملك العادل. وقد ترجمه المؤرخ الألماني بالمر(Palmer) إلى الإنجليزية.

ومنها كتاب(ديوان سلاطين كانم) لمسفرمه عمر بن عثمان السابق الذكر، يضمّ هذا الديوان أهمّ الوثائق، وأسماء السلاطين في إمبراطورية كانم برنو الإسلامية القديمة، ومنها غزوات كانم، وكتاب« أخبار أصل فلات برنوي » وغيرها[1].

ومن أهمّ الوثائق التاريخية في البرنو الإسلامية « المحارم »، وهي المراسيم التي كان يصدرها الحكام في حق العلماء، وقد استفاد المؤرخون منها، الأمر الذي جعل المؤرخ الألماني بالمر يترجمها إلى الإنجليزية في كتابه(صحارى برنو The Borno Sahara ، كما ترجم عدداً غير يسير من الرسائل العربية البرنوية والمعاهدات، وبعض القصائد في كتابه الثاني تحت عنوان« مذكرات سودانية Sudanese Memoirs » الذي يقع في ثلاثة أجزاء[2].

فالقيمة التاريخية في هذه الآثار العربية البرنوية لا شكّ فيها، وإن تضاؤل هذه الآثار العربية

---

https://www.arab-ency.com/ar

(1) د .آدم أديبايو **سراج الدين** ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، ***مجلة قراءات افريقية***، مجلة ثقافية فصلية محكَّمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد الخامس عشر، محرم- ربيع الأول 1434 هـ، يناير - مارس 2013 م، ص 82 و ما بعدها

النثرية في الإيفاء بشروط تدوين التاريخ على حدّ مفهومها المعاصر؛ لا يُخرج أولئك العلماء من كونهم مؤرّخين؛ لأن الاستفادة مما خلفوا من المعلومات.

ب.في الأدب:

تعتبر اللغة بالنسبة لأي شعب، بمثابة الوعاء الذي يحمل ثقافته وإنتاجه الأدبي والفكري، لكن اللغة العربية تمتاز بالإضافة إلى كل ذلك، بأنها أداة للصناعة الأدبية، والبلاغة التي ارتبطت بحضارة العرب قبل الإسلام، ثم جاء القرآن ليجعل منها معجزة جمعت جمال الكلمة، وبلاغة القول، وحملت رسالة إنسانية عظيمة، فكان الأدب العربي أول ما نقلته هذه اللغة أينما حلت بعد القرآن. فلم يكن للأفارقة في السودان الغربي قبل مجيء الإسلام من الآداب، سوى حكايات يتناقلها الخلف عن السلف شفهيا، وتتمثل أغلبها في ذكر بطولات الأجداد، وأصول القبائل، والملوك وأنسابهم، بالإضافة إلى صراع الإنسان مع الطبيعة[1].

فكان الأدب السوداني إذن، أدبا غير مكتوب، ومعظم التراث الأدبي تم الحفاظ عليه عن طريق الروايات الشفهية، إلى غاية مجيء الإسلام، واحتكاك السودانيين بالتجار المغاربة والفقهاء، وخاصة في المدن الهامة مثل تمبكتو، جاو، جني، ولاتة، وغيرها، حيث كان يلتقي العلماء والتجار والقضاة، فتمكن أهل السودان من تشكيل نخبة حملت آداب اللغة العربية2. وقد سبق وأن ذكرنا البلاغة التي ميزت الأديب الكانمي، أبا إسحاق إبراهيم بن يعقوب الأسود، وشعره الذي قاله عند ملاقاة أبي يوسف المنصور الموحدي.

إن المتصفح لتاريخ اللغة العربية وآدابها في هذه البلد؛ يعرف أن بعض العلماء والرجال على مرّ عصورها قد أسهموا في ترقية العربية وتطويرها في إفريقيا، وتركوا أنواعاً كثيرة من الكتابة، مثل الرسائل الديوانية بين العلماء، والوثائق الرسمية بين رجال الحكومة، وبعض الوثائق التاريخية، ومن الممكن تقسيم هذا الفن الأدبي(النثر) الذي أنتجه علماء هذه الديار إلى فنيّ وعلميّ، فالأول استعملوه في رسائلهم، والثاني في تأليفهم.

---

(1) زبادية، المرجع السابق، ص 77.

(2) نفسه.

أما النثر الفني؛ فخير مثال على ذلك الرسائل المتبادلة بين أهل الفودي وبين فارس الكانم الشيخ محمد الأمين الكانمي، ونورد هنا نصّاً من رسالته إلى الزعيم الفلاني الشيخ عثمان بن فودي، قال فيها» :من المتعفّر بتراب الذنوب، والمتدثّر بجلباب العيوب، العبد الذليل محمد الأمين بن محمد الكانمي إلى العلماء الفلانيين ورؤسائهم، السلام على من اتّبع الهدى، أما بعد، فالباعث لرسم هذا المزبور، أنه لمّا ساقتني المقادير لهذا الإقليم؛ وجدتُ نار الفتن بينكم وبين أهل الوطن موقودة، فسألتُ عن السبب، فقيل :بغي وقيل :سنّة، وتحيّرنا في الأمر، فكتبتُ لإخوانكم المجاورين لنا وثيقةً، طلبتُ منهم بيان السبب والدليل على الجواز، فأجابوني بجواب ركيك لا يصدر عن عاقل، فضلاً عن عالم، فضلاً عن مجدّد، وعدّوا فيه أسماء كتب لنا اطلاع على بعضها، لكن لم نفهم منها ما فهموه[1].

ومن أمثلة الرسائل الديوانية كذلك؛ رسالة ملك برنو إلى السلطان الظاهر البرقوق في القاهرة سنة 894 هـ تقريباً، والتي ورد فيها ما يأتي : « بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً :الحمد لله الذي جعل الخط تراسلً بين الأباعد، وترجماناً بين الأقارب، ومصافحة بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات، ومن المتوكّل على الله تعالى، الملك الأجلّ المستنصر بالله، المنصور في كلّ حين وأوان، ودهر وزمان، الملك العادل، الزاهد التّقي النّقي، الأبجد والأمجد الغشمشم، فخر الدين، زين الإسلام، قطب الجلالة، سلالة الكرماء، كهف الصدور، مصباح الظلام، أبي عمرو عثمان الملك ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرّم الله ضريحه، وأدام ذرية هذا ملكه؛ إلى ملك المصر الجليل، أرض الله المباركة، أم الدنيا، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر، وأعذب من ماء الغمام ..زاد الله ملككم وسلطانكم، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم، الذين يدرسون القرآن والعلوم، وجماعتكم وأهل طاعتكم أجمعين. وبعد ذلك؛ فإنّا قد أرسلنا إليكم رسولنا، وهو عمّي، واسمه إدريس بن محمد، من أجل الجائحة التي وجدناها وملوكنا، فإن الأعراب الذين يُسمّون جذاما وغيرهم، قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعاف الرجال، وقرابتنا من المسلمين»[2].

---

(1)آدم أديبايو سراج الدين ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، مرجع سابق، ص85.

(2)آدم أديبايو سراج الدين ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية ، مرجع سابق،ص 87.

وإذا ألقينا نظرة على ما أوردناه من مثال للإنتاج الهلمي باللغة العربية لعلماء كانم برنو؛ يتضح أن هؤلاء العلماء قد أسهموا بقدر الإمكان في التأليف العربي، وتناولوا فيه مواضيع شتّى، مع هذا فمن الأحسن أن ننتبه إلى سؤال قد يطرح نفسه على الدارس المدقّق، وهو أنه إذا كان لعلماء كانم برنو. تراث عربي[1].

ج. العلوم الشرعية و العقلية:

من أشهر علماء غرب إفريقيا تأليفا في هذا المجال و خاصة خلال القرن 16م نذكر احمد بابا التنبكتي الذي ترك لنا حوالي 40 كتاب، حيث عبر عنها بقوله: « وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»[2].

وله كتاب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، و ايضا تنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما كتب تعليقا على أوائل الألفية سماه النكت الوفية بشرح الألفية، ونيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة في كراسين، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاة، بالإضافة إلى شرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء باللّهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير،

---

(1) نفسه

(2) **جمال بامي**، احمد بابا التنبكتي، موقع الكتروني:***https://www.maghress.com/almithaq/6676***

وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف، ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات[1].

و خلال القرن19م ألف الشيخ عثمان دان فوديو في بلاد الهوسا أكثر من مائة كتاب في العلوم الشرعية و الجهاد و السياسة أشهرها كتاب « إحياء السنة و إخماد الفتنة » و كتاب « السنة و إخماد البدعة » الذي تطرق فيه إلى عدة مسائل تتعلق بالشرع و أركان الإسلام من صلاة و صيام و حج و زكاة، و آداب الطعام و ميراث نكاح و بيوع . و كتاب عنونه بـ «وثيقة الإخوان لتبيين دلالة وجوب إتباع السنة و الإجماع » ، كما كتب أخوه عبد الله في الأدب و الفقه أشهرها كتابه ضياء السياسات و فقه النوازل[2].

ج – أثر الحياة العلمية على تطور غرب إفريقيا .

إن ازدهار الحياة العلمية في أي مجتمع سيتبعه حتما ازدهارا في مختلف المجالات المحيطة بالحياة، فالمجتمع في غرب إفريقيا تأثر كثيرا بتلك النهضة العلمية و الثقافية التي شاهدتها حواضره، فكانت التنظيمات و الفنون نموذج عن طبيعة المجتمع، لذلك رأينا انه حدث تحول هام في التنظيمات السياسية و العمرانية و الفنية التي أصبحت هي الأخرى نسخة من مظاهر الحياة الثقافية عموما و التي صبغت بالصبغة العربية الإسلامية.

1 – أثرها في نظام الحكم والعمران .

أ. في نظام الحكم:

ان انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا أثر تأثيرا مباشرا على نمط الحياة السياسية للشعوب السودانية، فقد نقلها من نظام القبلي ضيق، الذي يقوم على أساس المشيخات يحكمها رؤساء العشائر ، و من نظام سياسي يقوم على اساس وثني يرتكز على

---

(1) **جمال بامي**، مرجع سابق.

(2) **بوبكي سكينة**، الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن19م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامي، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2009/2008م، ص ص من 72 الى 74.

طقوس السحر و التنجيم ، إلى نظام سياسي يقوم على الدولة، التي تتضمن إدارة وحكومة ونظاما سياسيا[1].

حيث تأثر ملوك غرب إفريقيا بالنظم الإسلامية، القائمة في المشرق و المغرب السلامين، حيث أصبحوا يقلدون الأمراء المسلمين الذين تأثروا بهم من خلال النماذج التي احتكوا بهم من خلال زياراتهم المتكررة إلى الحج، وكذا الأخبار التي كانت تصلهم عنهم من خلال التجار المسلمين الذين كانت أسواق مالي كتمبكتو، ولاته وجني تعج بهم. بالإضافة إلى احتكاكهم بالعلماء المسلمين، حيث تجسد التأثير العربي الإسلامي في نظام الحكم غرب الإفريقي في المظاهر التالية:

ب. نظام الخلافة:

يعد نظام الخلافة، أهم مظهر يميز النظام السياسي الإسلامي، حيث يرتكز على السلطة المركزية التي يتولاها أمير المؤمنين الذي تؤخذ له البيعة من الرعية، ويخطب باسمه في صلاة الجمعة و الأعياد، وتضرب باسمه الأختام، ويتخذ من الشريعة الإسلامية منهاجا ودستورا لحكمه.

لذلك حاول ملوك غرب افريقيا الإقتداء بهذه المواصفات، لإعطاء نظام حكمهم صبغة شرعية، بعد أن أصبحوا ينتمون إلى العالم الإسلامي. فكان أهل (سنغاي) إذا ولي منهم ملك، قدم إليه خاتم وسيف ومصحف، يزعمون أن الخليفة الفاطمي أمير المؤمنين قد بعث به إليه[2]، لكن دون أن تذكر المصادر التاريخية اسم الخليفة الفاطمي بالتحديد.مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن ذلك مجرد زعم القصد منه ادعاء التولية من طرف أمير المؤمنين، وبالتالي إعطاء حكمهم صفة الشرعية التي توجب الطاعة من طرف الرعية.

ولما كان عهد الإسقيين في مملكة سنغاي، ازداد حرص ملوك جاو على كسب المزيد من الشرعية الدينية لحكمهم، من خلال محاولة افتكاك لقب الخليفة وأمير المؤمنين، وعدم الاكتفاء بلقب والي الخليفة. حيث استغل ملك سنغاي الإسقيا الحاج محمد التوري سقوط دولة المماليك على يد جيش سليم الأول العثماني، في معركتي مرج دابق في رجب من عام

---

(1)**العمري(أحمد السويلم)، العمري (أحمد السويلم)**، الإفريقيون والعر ب لقاهرة، 1967م ،ص66.

(2)**البكري**، المصدر السابق، ص 182.

922هـ/1516م، و الريدانية في محرم من عام 923هـ/1517م[1]، ليأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين، وهو المتوكل الثاني عبد العزيز بن يعقوب[2].

فخلال زيارة الحاج محمد أسقيا للبقاع المقدسة بغرض أداء مناسك الحج في أواخر عام 900 للهجرة ، مر بمصر، وكانت الخلافة آنذاك ما تزال للعباسيين قبل أن يأخذها منهم السلطان العثماني سليم الأول عام 923هـ/1517م، وهناك بمصر اجتمع الحاج محمد أسقيا بالخليفة العباسي المتوكل، وطلب منه أن يأذن له في إمارة بلاد السودان، ويكون خليفة عليها هناك، فجعله الخليفة العباسي نائبا له على من وراءه من المسلمين ببلاد السودان. ولما عاد ملك سنغاي إلى بلده، أقام حكمه على قواعد الشريعة الإسلامية[3].

ويذكر المؤرخ السوداني محمود كعت، أن الحاج محمد اسقيا لما زار مكة، وكان جالسا بحذاء الكعبة مع شريف مكة مولاي العباس الحسني، أخبره هذا الأخير بأنه الخليفة الحادي عشر من الخلفاء الذين اخبر عنهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب منه أن يتخلى عن صفة الملك، و ذلك بطرد جميع وزرائه عنه، والتخلي عن جميع آلات السلطنة وأموالها، ووضعها بين يدي العباس، وبعد ثلاثة أيام، خرج إليه مولاي العباس و كان يوم الجمعة، ونادي الحاج محمد أسقيا، وأجلسه بمسجد مكة الشريفة، وجعل على رأسه قلنسوة خضراء، وعمامة بيضاء، وأعطاه سيفا، وأشهد الجماعة الحاضرين على أنه خليفة بأرض التكرور، وأن كل من خالفه فقد خالف الله تعالي ورسوله[4]. كما يروي القاضي محمود كعت أيضا، أن الأسقيا محمد التوري، لما كان عائدا من الحج في طريقه إلى السودان ،التقي بالإمام جلال الدين السيوطي بالقاهرة، واخبره هذا الأخير، بأنه يعد من بين اثني عشر خليفة أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم. خمسه منهم(يقصد الخلفاء الأربعة مع الحسن بن علي) ظهروا بالمدينة، واثنان بمصر، وواحد بالشام، واثنان بالعراق، ولم يبق منهم إلا اثنان بأرض التكرور، و أن الحاج محمد أسقيا يعد واحد منهما[5]. كما أخبره، بأن الخليفة الثاني عشر،

---

(1) طقوش (محمد سهيل)،التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2002، ص 359.

(2) **التازي (عبد الهادي)**، المغرب في خدمة التقارب الافريقي العربي. في كتاب: ***العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية***، الصادر عن المنظمة العربية للثقافة و العلوم،تونس،1985م.، ص 106.

(3) **السلاوي**، المصدر السابق، ص 48.

(4)المصدر السابق، ص 12.

(5) كعت، المصدر السابق، ص 13.

والذي سوف يأتي من بعده في بلاد التكرور، ينتمي إلى نفس قبيلته التي تنتسب إلى (الطوردو)[1] الذين تعود أصولهم الأولى اليمن، وأن عاصمته تكون كوكو (جاو)[2].

غير أننا لا نجد أثرا لهذين الخليفتين السودانيين في كتاب(تاريخ الخلفاء)، الذي ألفه السيوطي، والذي يشمل تاريخ خلفاء المسلمين، مما يجعل هذه الرواية المنسوبة للسيوطي تبدو غير أكيدة.

ومهما يكن، فإن الحاج محمد التوري، تصرف بعد عودته من الحج كخليفة للمسلمين، وقرر انتهاج قواعد الشريعة الإسلامية، وإتباع منهاج أهل السنة، حيث أخذ عن شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي علوم الفقه والعقيدة، وتعلم منه الحلال والحرام،، وآداب الشريعة وأحكامها، وانتفع بوصاياه ومواعظه.[3] ومنذ ذلك الحين، أصبح الحاج محمد اسقيا، يعتبر نفسه خليفة المسلمين، وأصبح يتبع منهاج الخليفة العباسي في مجلسه، وملبسه، وسائر أموره، ومال إلى السيرة العربية، وانصرف عن بقايا سيرة العجم التي كانت عند ملوك السودان.[4]

وقد انتشرت سيرة التشبيه بالخلفاء لدى ملوك السودان، إلى درجة أننا أصبحنا لا نفرق بينهم وبين أي خليفة عباسي آنذاك. فكان الملك يجلس في قصره الخاص، ومن حوله عدد كبير من الجواري والعبيد والخصيان والحرس والموظفين والكتاب والمستشارين والأمناء[5].

---

(1) هذه الكلمة بلغة (الفلاتة)، و تدل على شخص ينتمي إلى هيأة أو حزب أو جماعة تأسست في منطقة (فوتا جالون) والتي معناها، الأشخاص الذين يشتركون في الصلاة،، وقد استعملت من طرف السودانيين للدلالة على المسلمين المخدرين من فوتا السنغالية أو (فوتا تورو). في **الهامش** ,Houdas et Delafosse ,Tarikh el Fettache, P9

.و تعد (فوتا جالون) منطقة و هضبة موجودة حاليا في شمال غرب جمهورية غينيا، تقع بين مدينتي (لابه) و (بوكي) الغانيتان.مجموعة من الأساتذة على رأسهم :نقولا زيادة:أطلس العالم. مكتبة لبنان، بيروت،1417هـ،13.

(4) **كعت**، المصدر السابق،ص13.

(5) **السلاوي (أبو العباس الناصري)**، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. (ثلاثة أجزاء). تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م ، ص 48.

(6) نفسه.

(7) **الوزان (حسن**، المصدر السابق، ج2، ص 169.

(1) Deschamps (Hubert) , L'Afrique Noire précolonial. Presses universitaires de France, Paris, 1962,PP 52et53

كما أصبح ملوك السودان يحرصون على أخذ البيعة من ولاتهم، وفروض الولاء وجمع الخراج وغيرها[1]. إذ أنه في عهد الإسقيين، و منذ عودة الحاج محمد اسقيا من الحج أصبح ينظم حفلا ومراسيم لتولي أي ملك جديد الحكم. ففي اليوم الذي ينصب فيه ملك جديد على سنغاي، يدخل هذا الأخير إلى القصر ويجلس على العرش، وتضرب الطبول أمامه، وتقدم إليه إشارات السلطنة، وهي عبارة عن قميص مزركش، ولباس على الرأس يشبه التاج، وأضيفت له تلك العمامة الخضراء والسيف والبردة التي كان شريف مكة قد خلعها على الحاج محمد عندما باركه خليفة على بلاد السودان، ثم يستقبل الملك الجديد الولاة، وقادة الجيش، ويصلي الظهر في المسجد، بعدها يقسم جميع موظفي الدولة الكبار، وأفراد العائلة المالكة، يمين الولاء والطاعة والإخلاص له، ويشهد على ذلك القاضي والعلماء.[2] كما تأثر الاسقيا محمد توري بالنصائح التي زوده بها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد الأجوبة التي قدمها لأسئلته حول شؤون الحكم.

و حتى في بلاد الهوسا فقد تأثر ملوكها بالعلماء المسلمين و على رأسهم المغيلي الذي ساهم في إصلاح نظامهم السياسي، حيث قدم مجموعة من النصائح في شؤون الحكم لملك كانو محمد رمفا دونها في كتاب عنونه بما يجب على الملوك من حسن النية، و هي مدونة لشروط الحكم الإسلامي و ما يجب ان يتصف به الحاكم المسلم، و هذا بعدما راي من انتشار التقاليد الوثنية في ممالك الهوسا، كما ساهمت شخصيات علمية أخرى في إصلاح نظام الحكم في ممالك الهوسا حيث تشير المصادران هناك شخصيات علمية ساهمت في دعم السنة و انماط العيش و الحكم الإسلامية بكانو، منهم احمد بن عمر اتقيت التنبكتي، وهو جد احمد بابا التنبكتي، الذي دخل كانو و درس بها نحو سنة 1487م، و فيما بين 1504و1518 وصل عبد الرحمان سقين المغربي، و هو تلميذ ابن غازي المؤرخ، إلى كانو قادما من مصر و درس بها، و كان زميله مخلوف البلبالي (المتوفي بعد 1434م)، نشيطا هو الآخر في حقل التعليم بكانو و كتسينة، حيث قام هذان الشخصان بنشاط تعليمي كان له تأثير في الناحية السياسية بكانو حيث قاموا بقطع الأشجار المقدسة في عهد محمد رمفة[3].

---

(2) . **زبادية**، المرجع السابق، ص 63.

(3) مهدي ادامو، الهوسا و جيرانهم بالسودان الأوسط، في كتاب تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، الصادر عن اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص296

ب. الوزارة:

يعد ابن بطوطة والعمري أهم مصدرين مكتوبين تطرقا إلى أكبر قدر من التفاصيل حول الوظائف والخطط التي عرفتها إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها في القرن الثامن للهجرة/14م، ورغم ذلك فإننا لا نجد من بين الوظائف التي ذكروها منصب وزير.[1]ولكننا إذا تمعنا جيدا في تلك الوظائف فإن عددا منها يوازي منصب الوزير عند العرب المسلمين آنذاك، ولكنها تعطى لها أسماء أخرى. فحسب الروايات الشفوية فأن مملكة مالي كانت تضم وظائف تعادل وظائف الوزراء في إطار مبدأ تقسيم العمل، فكان هناك وزير يتكفل بالأجانب وآخر يتكفل بالضرائب وثالث يشرف على الشؤون الدينية وغيرهم.[2]ولكنهم في الحقيقة كانوا كلهم عبارة عن مسؤولين عن القطاعات التي كلفوا بها أمام الوزير الأول الذي ينتدبه الملك بنفسه ويعدون تابعين له مباشرة.[3]

وربما كان هذا الوزير الأول هو النائب الذي ذكره ابن بطوطة خلال وصفه لمجلسه بالمشور، وأن الفرارية هم الوزراء التابعين له، لكن ابن بطوطة لم يشر إلى وظيفة هذا النائب ولا الفرارية باستثناء ما ذكره عن كونهم أول من يدخل إلى مجلس الملك حاملين معهم فسين وكبشين، كما ذكر قيامهم بشكر الملك بنزع قسيهم لما وزع على الناس الذهب فوق رؤوسهم.[4]وفي موضع آخر ذكر ابن بطوطة قصة رواها احد القضاة للملك، ومفادها، هناك جرادة تكلمت وقالت بأن الله يبعثها للبلاد التي يكثر فيها الفساد لإفساد زرعها، وهنا قام الفرارية ونزعوا عمائمهم كعلامة لتبرئهم من الظلم.[5] فمن خلال كلام ابن بطوطة يظهر لنا المكانة الرفيعة التي يتمتع بها النائب والفرارية لدى الملك، من خلال الأسبقية التي تعطى لهم في دخول مجلسه، وهي مكانة لا ينالها عادة إلا الوزراء والمسؤولين الكبار في الدولة، كما نستنتج من نزع الفرارية لعمائمهم أمام قصة الجرادة وتبرئتهم من الظلم، أن هؤلاء الناس كانوا

---

(1) يذكر **القلقشندي** (، ص298) بأن هذه المملكة كان يوجد فيها الوزراء والقضاة والكتاب، ويقول بأنه نقل ذلك عن كتاب مسالك الأبصار للعمري، لكننا لم نجد وظيفة بهذا الاسم عند العمري. **(القلقشندي(أبو العباس أحمد)**، صبح الأعشى في صناعة الانشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1333هـ/ 1915م.

(2) **Bwemba-Bong** ,Quand l'Afrique était l'or noire de l'europe,volume1,éditions Menaibuc, 2005,p26 .

Joseph K i-Zerbo et René Holenstein , A quand l'Afrique . Éditions de l'ambe, 2003, p76 .

(3)**ONESCO** , Histoire de l'humanité (600-1492). Editions Unesco, Paris, 2008, p1171

(4) المصدر السابق، ص 685، 687.

(5)نفسه،ص688.

يشعرون بمسؤوليتهم على إقامة العدل ومحاربة الظلم في ربوع الإمبراطورية، وهي الوظيفة التي كان يضطلع ها الوزراء خلال العصور الوسطى.

وقد تكلم ابن خلدون عن رجل تولى الحكم في مملكة مالي مباشرة بعد مقتل منسا مغا ابن منسا موسى الثاني و هو زوج أم منسا موسى الثاني ويدعى صندكي الوزير[1]. فرغم أن كلام ابن خلدون لا يوضح إن كان صندكي هو اسم هذا الوزير، أم هو لقب خاص بكل من تولى الوزارة في مالي، إلا أن بعض المؤرخين استنتجوا من هذا بأن الوزير في عهد خلفاء سوندياتا كان يلقب بـ"صندكي" (Sandigui)، أوديون صندكي(Dyon sandigui).[2]ورغم أن ابن خلدون يذكر في موضع آخر بأن الوزير كان يدعى عندهم ماري، ومنه اشتق اسم ماري جاطه[3]، إلا أننا نجد بأن ابن خلدون يذكر في موضع آخر من نفس المصدر، بأن معنى ماري عند الماليين هو الأمير وليس الوزير.[4]

لذلك فإننا نعتقد بأن الوزير الذي ذكره ابن خلدون لم يكن يلقب بماري جاطة على أساس الوظيفة، و إنما كان ذلك اسمه الشخصي. لكن الشيء الذي نفهمه من رواية ابن خلدون هو أن هذا الصندكي كان كثيرا ما ينفرد بأمور الدولة عندما يجد ملوكا ضعافا مثلما حدث في أواخر عهد منسا مغا.

وإذا رجعنا إلى الروايات الشفوية المندية فأننا نجد بان الوزير كان يدعى "فارما" وهي كلمة مندية مركبة من كلمتين هما فا (Fa) أوفار (Far) والتي تعني الأب أو الوالد، وكلمة ما(Ma) وهو اسم موصول يلعب دور ظرف المكان في اللغة المندية، ويعني مكان منخفض أو الأسفل[5]، وبالتالي فيمكن أن يكون ابن بطوطة قد ذكر الفراري قاصدا بها فارما التي تعني الوزير، أو فار التي تعني الوالد أو الأب، خاصة وأنه لم يكن يتقن اللغة المندية، إذ كان يستعين بالترجمان لمخاطبة منسا سليمان.

---

(1). **ابن خلدون(عبد الرحمان)**، كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ /2000م. مج6، 270.

(2) **طرخان (إبراهيم علي)**، دولة مالي الإسلامية.دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973، ص 129.

(3) المصدر السابق، مج6، ص 269.

(4)نفسه، ص 266 .

(5) **Delafosse(Maurice)** , Essai de manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, p12.

وحسب الروايات الشفوية فإن الوزارات في مملكة مالي كانت متعددة، فهناك وزير الثقافة الذي يدعى "بابيلي فارما" ووزير الأملاك الذي يدعى "واني فارما" أو(دوغو فاما). أما وزير المياه على النيجر الذي يعد المسؤول على الصيد والملاحة به فيدعى"جيتيجي فاما"، كما وجد وزير الغابات الذي كان يطلق عليه اسم "ساو فارما" أو"تو فاما"، والوزير المكلف بالخزينة المدعو"خاليسي فارما" أو "فودي فاما".[1]ونجده في بعض المصادر باسم سانتيجيوهو في الحقيقة أمين مخازن الغلال الملكية، والذي يعتبر بمثابة وزير المالية.[2]ولهذا نعتقد بأن سانجييتي وصندكي الذي ذكره ابن خلدون، ما هو إلا تحريف لكلمة ساندیكي التي تعني وزير المالية أو وزير المخازن الملكية، باللغة المالنكية. كما وجدت هناك وزارة مكلفة بالضرائب أيضا.[3]

وقد عرفت سنغاي بعض الوزارات، التي تعود إلى فترة خضوع غاو لحكم أسرة كيتا، ومنها خالص فارما وهو وزير المالية، وزير البيض أو الأجانب وهو كوراي فارما، والوزير الأول أو نائب الإمبراطور وهو الأمين العام للإمبراطور ويدعى الكنفاري أو البالاما[4]، ولكن وظيفة الوزير لم تكن تقتصر على تسيير أمور قطاعه وتنفيد سياسة الملك في القطاع الذي كلف به، وإنما كانت له مهمة إقليمية تضاف إلى مهمته الوزارية ألا وهي تقديم الاستشراف المستقبلية عن إقليم ما لأصحاب السلطات الإدارات المحلية من أمراء وحكام مقاطعات، وبذلك لعبوا دور الجسر الذي يربط بين الملك وحكام الإمارات التابعة إليه،[5] لذلك قال عنهم ابن بطوطة بأنهم أمراء[6].

كما كان الوزراء يقومون بالترجمة لحكام المقاطعات الذين يأتون لزيارة الملك لما يكونوا من مناطق لا تتكلم لغته، بحيث يتولون مهمة شرح قضاياهم ومشاكلهم للملك[7].

---

(1) **Niane Temsir Djibril**, Recherches sur l'empire du mali au moyen âge, mémoire de l'institut national de recherche, Conakry, La Guinée, 1962, p55,

(2)**جبريل تمسير نياني**، مالي و التوسع الثاني للمندينغ، ص17.

(3) **Bwemba-Bang** , Op.Cit,p28.

(4)**جبريل تمسير نياني**، مرجع سابق، ص172 .

(5)**Joseph k i-Zerbo et René holenstein** , Op.Cit, p76.

(6)**المصدر السابق**، ص 682.

(7) **Bwemba-Bong**, Op.Cit, p26 .

ب. أثرها في الميدان العمراني:

أن ازدهار الحياة الثقافية و العلمية في غرب افريقيا تبعه ازدهار في الذوق الفني و خاصة الميدان العمراني، كما أن تفتح الافارقة على الثقافة العربية الإسلامية جعلهم يستمدون منها الكثير من الخصائص في المجال العمراني، لكنهم اثبتوا خصائصهم الابداعية في هذا المجال، فقد أصبحوا يتميزون عن غيرهم من الشعوب في هذا المجال، حيث تمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي ويحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كان بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، وذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة، كما كانت توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية.[1]فكانت العاصمة نياني في عهد سوندياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين وأسقفها مصنوعة من القصب.[2]وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار وحشائش النباتات، وفي مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان وهو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن.[3]

لكن وصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324م، تعرف على مهندس وشاعر ومهندس أندلسي هو أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن[4]فاصطحبه

---

(1)**زبادية(عبد القادر)**، الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء.(دراسات ونصوص). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 52.

(2) **Mauny(Raymond)**, Les siècles obscurs Op.Cit, p160.

(3) **باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم)**، المرجع السابق، ص 98 .

(4) هو أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي والطويجن، وهو من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة، وكان من أهل العلم فقيها متفننا، وله الباع المديد في الفرائض، كان في صغره موثقا بسماط شهود غرناطة، وجال ببلاد المغرب، ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق، ودخل اليمن والحجاز، وعاد إلى مصر، ثم سار إلى بلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا، بالغا فيها أقصى مبالغ المكانة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتنى مالا دثر. (العسقلاني(ابن حجر): الدرر الكامنة، ج1،ص211.) ويذكر دولافوس بأنه توفي بتمبكتو خلال فترة حكم منسا سليمان سنة 1346م (Haut Sénégal-Niger,t2,p190).

معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني.[1] وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، وهو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس[2].

وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهاشه لوضعية مسجدها المتردية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش،[3] لذلك نبه منسا موسى إلى أن هذه البناية لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، ولا ترقى إلى مقام الإمبراطور، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات ومساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة ولا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش[4]، وطلب هذا الأمير الموحدي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.[5]

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس.فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى

---

(1) **السلاوي (أبو العباس الناصري)**، الاستقصا، مصدر سابق، ،ص ص74و 75.

(2)**ابن خلدون**، المصدر السابق، ج6،ص 267 .

(3)ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت مبنية وسقوفها بالأخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمل. (المصدر السابق، ص111)

(4)**قداح نعيم**، افريقيا الغربية في ظل الإسلام، المرجع السابق، ص112 .

(5) **Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard)** , Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 et23 ;- **Delafosse(Maurice)** , Haut Sénégal-Niger, tome2, p189.

ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.[1]

ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.[2]

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذكانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،[3] ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان،و بالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.[4] فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي،

---

(1) **Ogunsolo(John Igué)** , Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

(2)**ابن خلدون**، المصدر السابق، ج6 ،ص 268. ـــ.. **السلاوي**، المصدر السابق، 152 .

(3) **بن قربة(صالح)**، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100.

(4)**السعدي**، المصدر السابق،ص ص 20 ،21.

فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،[1]فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين.[2]

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.[3] وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر(أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة بتمبكتو.[4] حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي.[5]وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها[6]،مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحداثته بالنسبة للسودان الغربي.وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه،حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو.[7]

---

(1) **Cornevin(Robert et Mariane),** Histoire de l'Afrique, Op0Cit, p164.

(2)**السعدي**، المصدر السابق، ص 87.

(3) يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّر الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. (تاريخ السودان، ص 56).

(4) Cornevin(Robert et Mariane), Op.Cit, p164.

=يذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16 م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى إلىمستوى حتى تلك القبور والاضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جني... =القديم.

Dubois (Felix), Timbuctoo the mysterious.Translated from the frensh by : Diana White, New York, 1896, p275.

(5) **Ogunsolo(John Igué)** ,OpCit, p41.

(6) Dubois(Felix) ,Op Cit,p275.

(7) **Mahmoud kati** , OpCit, p56.

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سونديانا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو(Banco) باحترافية كبيرة،[1]كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي[2] الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة.

أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سُلَّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحا صغيرا محاط بحاجز مرتفع قليلا، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات[3]. بالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجا حقيقيا للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية[4].

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضا زاخرا بالانجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس

---

(1) **Niane djibril temsir** , Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p134.

(2)يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

(3) **Niane djibril temsir** , Le soudan occidental, p130.

(4) **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص147 .

مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.[1]مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،[2] وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.[3]

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس ومورااليس،[4] قد أفرزت طرازا معماريا يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازا سودانيا خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.[5]

لكن بعض المؤرخين الغربيين والمستشرقين لا يريدون الاعتراف بدور الساحلي في العمارة السودانية، وينكرون وجود ذلك الأثر المغربي فيها، ومنهم من يعتبر شخصية أبي إسحاق الساحلي شخصية وهمية ولا وجود لها، في محاولة لنفي أي تأثير عربي إسلامي في العمارة السودانية. فالأستاذة سوزان أراديون (Suzan Aradeon) تذكر بأن أبا إسحاق الساحلي هو مجرد أسطورة من وحي خيال المصادر التاريخية العربية التي اخترعتها، وانتشرت بعد ذلك عند الأوربيين. وتقول بأنه من يقول بوجود الأثر المغربي فهو جاهل بخصائص العمارة السودانية، فهي تحاول أن تقنعنا بأنها تريد الدفاع عن أصالة الفن المعماري السوداني، وتتهم هذه المصادر العربية بأنها تسعى إلى إثبات عجز السودانيين على ببناء شيء غير الأكواخ

---

(1)**المصدر السابق**، ص 690.

(2)البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23كيلومترا

Mauny (Raymond) , les siècles obscurs , p160.

(3) **قداح نعيم**، المرجع السابق، ص 150.

(4) **Delafosse (Maurice) et Mouralis (Bernard)** , Les Nègres,p23.

(5) **Trimingham (Spencer)**, Op.Cit, p69.

الصغيرة[1]. لكنها في المقابل لم تقدم لنا ولا دليل مقنع عن ادعائها سوى ذكر آراء المؤرخين الأوربيين الذين شكّكوا في دور الساحلي، فهي تستشهد بكلام شارل مونتاي (Charles Monteil)، لكن هذا الأخير لا ينكر وجود شخصية الساحلي، ولا ينفي ما قام به، لكنه ينسب للساحلي بناية واحدة وهي قاعة الاستقبالات في العاصمة نياني[2].

كما نستشهد بما كتبه الدكتور الألماني هنري بارث(Henri Barth) وتقول بأنه يشكك في أسطورة الساحلي، لكننا لو عدنا إلى ما كتبه هنري بارث لوجدنا بأنها أوّلت خطأ كلام بارث بما يدعم فكرتها المسبقة، حيث لو رجعنا إلى ما قاله الدكتور الألماني فنجد ما يلي:« إن تمبكتو التي يبدو أنها استسلمت بدون مقاومة للفاتح (أي منسا موسى) تحولت إلى عاصمة لإمارة ذات عظمة ومكانة، لأن الزعيم الجديد، وهو رجل حيوي وصديق للفنون زوّد المدينة بمسجد وقصر جديد »[3].

لهذا فنحن نعارض ما وصلت اليه الباحثة سوزان ارادون فبارث لم ينف ولم يشكك في شخصية الساحلي كما تدعيه الأستاذة أراديون، بل لم يذكرها أصلا، ولكنه ينسب بناء المسجد والقصر في تمبكتو لمنسا موسى على أساس أنه هو الإمبراطور صاحب الأمر والنهي، وصاحب السلطة التنفيذية في مالي، فلم يذكر من نفذ أوامره بالبناء، لكنه في المقابل نرى هناك تطابق كبير مع ما ذكره السعدي الذي يقول بأن منسا موسى بنا مسجد وقصر تمبكتو بعد ضمها إلى مملكته عند عودته من الحج سنة 1326م/726هـ[4].

كما يذكر بأن هذا الإمبراطور كان صديقا للفنون، ونحن نعلم بأن ولعه بالفن هو ما جعله يتقرب من هذا المهندس الشاعر، ويصرّ على جلبه إلى بلاده.ومن الشواهد التي استندت إليها الأستاذة في نفي الأثر المغربي في العمارة السودانية كلام موريس دولافوس، لكننا نجدها هنا تتناقض مع ما ذهبت إليه، فهي تقول بأن دولافوس قد أشار إلى أن منسا موسى هو الذي

---

(1) Suzan B.Aradeon: Al-Sahili (The historians Myth. of architectural technology tranfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Anneé1989, Volume 59, N°01, p99

(2)**Charles Monteil,** Les empires du Mali, p86.

(3) **Henri Barth** , Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a.Traduction de l'Almand par :Paul Ithier. Edité par :A.Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855 pp14, 15.

(4) **السعدي**، تاريخ السودان، ص ص7و 87.

طلب من الساحلي إدخال النموذج السوداني إلى العمارة السودانية وأن هذا الأخير(أي الساحلي) استوحى تفاصيلها من النموذج المغربي.[1]

وبذلك يمكن أن نستنتج بأن ما ذهبت إليه الأستاذة سوزان أراديون لا يقوم على أية أسس علمية، ويبقى مجرد أحكام مسبقة خاطئة وتفنيد لأحداث تاريخية أكدتها كل المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية[2]. فالمصادر العربية لم تنكر وجود عمارة سودانية، ولكنها تعترف بأنها كانت بسيطة وتفتقد إلى الرقي الذي وصلت إليه العمارة المغربية، وما إصرار منسا موسى على جلب المهندس الغرناطي إلى بلده إلا لمهمة البناء.

صحيح أن البناء الأول الذي قام به أبو إسحاق الساحلي والمتمثل في مسجد مدينة غاو كان باقتراح من الأمير الموحدي المعمر، لكن البنايات الأخرى التي أقامها في كل من تمبكتو ونياني كانت بطلب من منسا موسى. وهو ما يعني افتقاد مالي لمن يتقن هذا الفن، كما أن انبهار الملك منسا موسى بالانجاز الذي قام به الساحلي من خلال بنائه لتلك القبة المربعة بقصره في نياني، والسخاء الذي أبداه في مكافأته عليه لدليل على عدم وجود عمارة في مالي بذلك الرقي والإتقان، خاصة وأن ابن خلدون قد أكد ذلك بقوله: « لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل» [3].

3. المراسلات العلمية بين حواضر غرب إفريقيا و دورها العلمي و الثقافي :

من بوادر النهضة العلمية التي شهدتها الحواضر العلمية و الثقافية في غرب افر يقيا تلك المراسلات التي تمت بين علماء و دعاة المنطقة و علماء و مصلحين من المشرق و المغرب الإسلاميين حول مسائل فقهية أو عقدية أو غيرها، بالإضافة إلى المبعوثون في مهام تعليمية إلى الحجاز و مصر. فلقد كانت هذه المراسلات تهدف إلى توجيه الدعاة و تدعوهم إلى المنهج القويم و السليم، كما تدعوهم إلى تصحيح الأفكار و العقائد و الممارسات المنحرفة الحاصلة في الدين ، كما تبين لهم طرق التعليم و مناهجها و سبل حل الخلافات بين المسلمين و آثارها السلبية على الأمة الإسلامية.

---

(1) Suzan B. Aradeon, Op.cit. pp99, 100.

(2) **Raimbault (Michel) et Kléna (Songo)**, Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991.

(3)ابن خلدون، المصدر السابق، ج6 ،ص 268 .

و من أشهر هذه المراسلات رسالة الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي لسلاطين بلاد التكرور عموما و بلاد كاتسينا في الهوسا خصوصا، و قد ضمنها الوصية بتقوى الله و الثناء عليه والتذكير بالآخرة، و عدم الاغترار بالدنيا و زينتها، و الوقوف إلى جانب الشريعة و إنكار المخالفات الشرعية التي انتشرت في بعض بلادهم[1].

و ذكر محمود كعت في تاريخ الفتاش أن الأسقيا محمد توري لما كان عائدا من الحج التقى بمصر بالسيوطي سأله عن قضايا فكانت إجاباته موافقة لإجابات علماء السودان الغربي الذين كان الأسقيا قد سألهم مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي[2]. كما كانت للسيوطي مراسلة أخرى للمغيلي شملت تحر يم علم المنطق بينما رد عليه المغيلي برسالة يحلل فيها المنطق و يرد عليه و ختمها بقصيدة شعرية في هذا الرد[3].

و في السودان الأوسط فقد جرت مراسلات بين الشيخ محمد الأمين كانمي سلطان كانم والشيخ عثمان دان فوديو خليفة المؤمنين بسوكوتو، حيث دارت مواضيع المراسلات بينهما حول حكم الجهاد في بلاد الهوسا و كانم بورنو، علما بأن الكانمي درس في المدينة المنورة والقاهرة و فاس، وذاع صيته ببلاد السودان الأوسط، و أصبح له تأييد و نفوذ و تأثير كبير على الناس، و كان يرى بأن لجو الشيخ عثمان دان فوديو إلى الجهاد في صفوف المسلمين الذين كانوا خاضعين للممالك الوثنية يضر بالمسلمين و ينحرف عن رسالة الإسلام الحقيقية، بالاضافة إلى واجبه للدفاع عن بلاد كانم بعدما احتلتها قوات عثمان دان فوديو فكانت بينهما حروب بالبنادق و السيوف و حروب بالقلم عن طريق المراسلات التي حملت مناظرات علمية ودينية. فلقد بلغت تلك المراسلات عشرات الرسائل و دامت ست سنوات دافع فيها كل واحد منهما عن مواقفه، و لقد ساهمت تلك المراسلات بينهما في تصحيح الكثير من المفاهيم مستندين إلى الكتاب و السنة[4].

ثالثا: اثر الحياة العلمية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية:

---

(1) هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية و آثارها التعليمي،و الدعوي بغرب إفريقيا، ***مجلة قراءات افريقية***، العدد الثالث، ديسمبر 2008م، ص 3.

(2) محمد بن عبد الكريم المغيلي، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص ص 6،7،8.

(3) احمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج في تطريز الديباج، مصدر سابق، ص332.

(4) هارون المهدي ميغا، المراسلات العلمية، مرجع سابق، ص6.

.1. النظام الاقتصادي:

من نتائج احتكاك سكان غرب إفريقيا بعلماء المغرب و المشرق أن اخذ عنهم نظمهم الاقتصادية، فكان تبني ممالك غربي إفريقيا التنظيمات اقتصادية نتيجة حتمية للتطور العلمي و التفتح على الحضارة العربية الإسلامية التي عرفوها من خلال الحواضر العلمية وعلمائها. وكان نظام الضرائب من أهم النظم الاقتصادية التي انتقلت إلى غرب إفريقيا عن طريق احتكاكهم بالمغاربة ، الذين كانوا يمارسونها على تجارة القوافل ، وتدر عليهم أرباحا طائلة[1].

فقد كان الفاطميون يجبون أربعمائة ألف دينار سنويا من الضرائب المفروضة على تجارة القوافل الآتية من بلاد السودان، كما أن هذه العائدات الضريبية مكّنتهم من تجهيز الحملة على مصر في عهد المعز لدين الله[2]، كما لاحظ أهل السودان تلك الرسوم التي كان يجنيها الزير يون من عائدات الضرائب المقروضة أيضا على تجارة القوافل، والتي كانت تقدر بـ ستة وعشرين ألف درهم في اليوم الواحد[3] .

إن هذه الثروات، التي يمكن أن تجلبها الضرائب لبلدهم، جعلت السودانيين يسطرون ضرائبهم الخاصة بهم وذلك على السلع الواردة و الخارجة من بلادهم. فكان أهل غانة يفرضون ضريبة تقدر بدينار واحد من الذهب على كل حمولة حمار من الملح تدخل غانة ، ودينارين من الذهب، على نفس الحمولة إذا خرجت من غانة [4]. وهذا يدل على أن امملكة غانة كان لديها نظاما ضريبيا، ليس من أجل جني الأموال فقط ، وإنما أيضا من أجل تنظيم السوق وميزانها التجاري عن طريق تشجيع استيراد الملح ، والتقليص من تصديره ، لكونه يعد مادة ضرورية ونادرة في بلادهم. كما فرضت هذه المملكة ضريبة على معدن النحاس قدرها

---

(1) D'hina (Atallah) , Les états de L'occident musulman aux XIII – XIX-XV siècles O.P.U, Alger, 1984, P84

.

انظر أيضا: لقبال(موسى)، دور كتامة في تاريخ الخلافة الإسلامية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس للهجرة/11م. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1979ص474. ـ **لومبار (موريس)** ، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، طبعة أولى ، 1979، ص335

(2()Djegloul (Abdelkader) , Trois études sur Ibn Khaldoun, ENal- Alger, 1984., P80

(3) دافدسون (بازيل) ، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد.ترجمة:نبيل بدر و سعد زغلول، مراجعة: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة و النشر، مصر،دون تاريخ.، ص 44 .

خمسة مثاقيل[1] من الذهب، على كل حمولة من النحاس، بينما كانت تفرض ضريبة عشرة مثاقيل على كل حمولة من البضائع الأخرى[2] .

كما عرفت مملكة مالي من بعدهما النظام الضريبي، وكانت تفرض على إمارة سنغاي، التي كانت خاضعة لها، ضرائب منذ سنة 725هـ/ 1325م ، واستمرت لمدة خمسين سنة أو تزيد[3]. وكان ملوك غرب افريقيا حريصين وصارمين في جمع هذه الضرائب من رعيتهم، فكان الواحد من الرعية، مطالبا بتسديد ما عليه من ضرائب ورسوم ولو بعد مرور أشهر أو سنوات من انقضاء فترة الدفع ، حيث لم يكن هذا الواجب يسقط بالتقادم[4].

وعندما تتراكم الديون الخاصة بالضرائب، يقوم الملك، أو الوالي، أو حاكم المقاطعة، بتنظيم حملة لجمع متأخرات الضرائب، وكثيرا ما كان يصحب هذه الحملة تجاوزات وأعمال عنف مختلفة من طرف عمال الملك[5].

وقد قسمت الضرائب أيام الإسقيين حسب القبائل، ولم يكن هناك نظام ضريبي موحد ، فكانت مدينة (ملكي) مثلا، عندما تزرع الغلة يدفع كل واحد قدر استطاعته، فهناك من يستطيع دفع عشرة أفتات[6]، ومنهم من يستطيع دفع عشرين فتا ، وهكذا إلى غاية ثلاثين فتا، و الذي يعد أقصى حد يجب دفعه[7]. وكانت قبيلة (جندك) يأخذ منها الحاج اسقيا محمد،سفنا(كان يصنعها أهل القبيلة) كغرامة، و كان يأخذ من قبيلة(زناجية) حيتانا يابسة كضرائب، حيث يدفع كل واحد منهم حسب قدرته[8].

---

(4) و يقدر وزن المثقال من الذهب باثنتين وسبعين حبة من الشعير. ابن خلدون: المقدمة، ص206.

(5) **دافدسون (ب)** ، المرجع السابق. ص 44

(6) Labouret (Henri) ,Histoire des noirs d'Afrique. Presses universitaires de France, Paris, 1950, P30.

3Ibid,P30

(4) الفت : هو الشق في الصخرة. ويعني أيضا بعرة يابسة، أو كتلة من التمر، أو قطعة من الشيء. **(معلوف لويس)**، المنجد في اللغة . المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960، حرف الفاء، ص566

(5) الوزان (حسن ، المصدر السابق ، ص 170

(6)Labouret (H) , Op. Cit, P30 .

كما قسمت الضرائب أيضا على أنواع الحرف، فهناك ضرائب يدفعها الفلاحون الأحرار ، وضرائب يدفعها مستغلو قطعان الماشية، التي كانت تسلب في الحروب، وتوزع على الرعاة الذين يخضعون لسلطة (أميرو) وهو أمير البقر، وكانت الضرائب التي تأتي من الأراضي، أو من قطعان الماشية، تعد أكثر الضرائب مواظبة في الدفع ، إذا كان يدفع عن كل ثلاثين ثور واحد، وعن كل أربعين بقرة يدفع بقرة واحدة،ويدفع خروف عن كل أربعين خروفا، وعنزة عن كل مائة عنزة . وكانتهذه الضرائب توجه لإعانة الفقراء، وشراء الأسرى وتحريرهم، أما الضرائب غير المباشرة، فكانت تقدر بدفع العشر (1/10) عن كل سلعة تباع في السوق.

وإلى جانب الضرائب، عرف السودانيون النظم الاقتصادية الإسلامية ،التي انتقلت إليهم من العالم الإسلامي ، مثل الخراج ،فكان حاكم تمبكتو في بداية القرن العاشر للهجرة ،يجمع الخراج من أمير ولاته والولايات الأخرى التابعة له ، وكان يشن حروبا ضد الولايات الممتنعة عن دفع الخراج، فكان أمير أغاديس مثلا، يدفع سنويا نحو مائة وخمسين ألف مثقال كخراج ملك تمبكتو[1]، إلى جانب ذلك، كان الأسقيون يفرضون زكاة الفطر على رب كل عائلة في أواخر شهر رمضان[2].

وكان الحاج محمد أسيقا، حريصا على تنظيم شؤون مملكته على الطريقة الشرعية ،إذ أقام بيتا لمال المسلمين، ثم بعث بعدة مراسلات إلى الشيخ المصلح المغربي، محمد بن عبد الكريم المغيلي، يستفسره عن مصير الأموال التي كان قد جمعها سلفه (سني علي) عندما دخل تمبكتو، و التي استولى عليها الحاج محمد اسقيا ، بعد أن ترك مال كل من ادعى الإسلام والحرية، فأجابه المغيلي بأن أموال الذين هم مسلمون حقا ترد إليهم ، أما أموال بقية السكان، الذين مازالوا يشركون بالله عن طريق تقديس الأشجار والذبح لها، ويقدسون بعض البيوت ، مع أنهم مسلمين باللّسان ويشهدون أن لا إله إلا لله محمد رسول الله صلى الله عليه

---

(1) مغيلي(محمد بن عبد الكريم)، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تقديم وتحقيق: زبادية عبد القادر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974م.،.ص.43 و ما يليها.

(2) MAUNY(Raymond), Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge. Edition Ifan, Dakar, 1961, p 419 .

وسلم ، فإنها تضم إلى بيت مال المسلمين، كما تضم إلى بيت مال المسلمين، كل أموال(سني علي) وعبيده وجواريه كذلك، وأمره بأن يصرفها فيما أمر الله[1] .

2. العملة:

رغم التطور المبكر الذي عرفته بلاد السودان في ميدان المبادلات التجارية ، إلا أن هذا التطور لم يفرض استعمال العملة، وبقي التبادل التجاري يتخذ طابع المقايضة بالدرجة الأولى، رغم أن العملة لم تكن مجهولة عند السودانيين.

فالشهادة التي حملها ابن حوقل خلال القرن الرابع للهجرة ،عن وجود اعتراف بالدين من أحد تجار أودغست لنظيره من سجلماسة ، والمقدرة بأربعين ألف دينار، تبين أن السودانيين في ذلك الوقت كانوا يستعملون عملة أجنبية عنهم، وهي الدينار، الذي يعد عملة إسلامية ، داخل مملكة غانة الوثنية.

يبدو إذن، أن استعمال العملة في ذلك الوقت من طرف التجار الغانيين كان ظرفيا فقط، ولما بدأت العملة تنتقل إلى بلاد السودان لم يستعملوا نقودا معدنية مضروبة ، حيث كانت النقود المضروبة نادرة جدا في بلاد السودان . لذا تداول السودانيون دينارا غير مطبوع أملس، ولا يحمل أي خاتم ، وهو مصنوع من الذهب، ويسمى(الأصلع)،أي الأملس[2] . بينما وجدت في نفس الوقت، قطعا نقدية ذات أصل مغربي، أو مصري، كانت تتداول في بلاد السودان، مثل دينار أبي تميم المعز لدين الله الفاطمي (341- 364 هـ / 952- 975م) الذي وجد في منطقة جاو، وتزن بين 4،2 غرام و 4،3 غرام، أي وزن مثقال رسمي[3].

وخلال فترة حكم المرابطين والموحدين، وجدنا استعمال الدينار والدرهم في بلاد السودان، مع أنها كانت تضرب في المدن المغربية[4]، وهي دلائل أخرى تثبت بأن العملة انتقلت إلى بلاد السودان عن طريق التجار المغاربة، ولم تكن عملة رسمية محلية.

3. المقاييس والموازين والمكاييل:

---

(1) MAUNY (R) ,Recueil des sources Arabes concernant l'Afrique occidentale du 13ème au 16ème siècle. Traduit par : Joseph Cuoq, Paris, 1975, P61.

(2) MAUNY(Raymond), Tableau géographique, Op.Cit, p420.

(3) Ibid, p419

(4)Mauny(R) :,Tableau Géographique, p410

استعمال السودانيون الكثير من المقاييس والمكاييل العربية الإسلامية، فشاركوا العرب المسلمين في استعمال عدد منها ومن أهمها ما يلي :

اولا: المقاييس: ومن المقاييس التي استعملها السودانيون، ما يلي:

الأصبع : وهو أصغر وحدة للقياس، و تساوي طول ست حبات من الشعير مصطفة، وهو قياس قدم إلى السودان من بلاد المغرب، ويقدر طول الأصبع بـ 2 سنتمتر[1].

الشبر: ويساوي الامتداد بين الخنصر والإبهام حين تكون الكف مفتوحة، وتقدر بحوالي 21.5 سنتمتر [2]، ويطلق عليه أيضا الشهاب، وهو ما يزال مستعملا إلى اليوم في إفريقيا الغربية[3].

الذراع : فالذراع العربية تساوي 24 أصبعا أي 48 سنتمترا ، وهي قريبة من الذراع الأندلسية، التي تساوي 47 سنتمترا ، وقريبة من الذراع الموريتانية الحالية، التي تساوي 50 سنتمتر[4] ، والذراع هو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطي. ومازال الذراع يستعمل في جني لقياس القماش[5] .

الميل : وهو يستعمل لقياس المسافات ، ويصعب تحديد الميل العربي بدقة ، وبما أن درجة واحد تساوي 56 ميلا وثلثين ، فإن موني (MANUY) اهتدى إلى أن الميل يساوي مابين 1920 مترا و 1960 متر ، ويمكن أن يصل إلى 2000 متر[6].

.البريد:

وهي المسافة الفاصلة بين محطتين بريديتين، وتساوي في المغرب الإسلامي 23040 مترا[7].

الفرسخ: ويستعمل لقياس المسافات البعيدة، ويقدر بثلاثة أميال[1]، وقد استعملها لسودانيون وقدروه بمسيرة ساعة بالخيل السريع[2].

---

(1) Ibid, P411

(2) زبادية ، المرجع السابق، ص 53

(3) Mauny(R) ,OP.cit, P412 .

(4) Ibid,p 411

(5) Ibid

(7) زبادية، المرجع السابق،ص53

(7)Mauny(R),Tableau, OP.Cit, P 411.

ب. الموازين:

هناك المثقال والدينار والدرهم، التي ذكرت في موضع سابق، بالإضافة إلى موازين أخرى استعملت في جاو و كومبي صالح ، منها ما هو مصنوع من الزجاج،ومنها ما هو مصنوع من الحديد أو النحاس أو الصخور . فالثقل المصنوع من حجر سمكه 23 مليمتر، وعلوه 18 مليمترا و يزن 14.85 غراما، وثقل من النحاس سمكه 15 مليمتر وعلوه 10مليمتر، يزن 14.4 غرام، وكل الأثقال كان قد تم الأبحاث أأقيمت عام 1949 م في كل من كومبي صالح، وجاو ، والتي تثبت استعمال السودان الغربي للموازين العربية الإسلامية[3].

وعلى العموم فإن الموازين الإفريقية قبل دخول الاستعمار الأوربي كانت كلها إسلامية، إذ وجد الميزان ذو الذراعين المتساويين في كل من تمبكتو وجني، كما استعمل السودانيون الأوقية، التي تقدر بحوالي 25،2 غراما تقريبا[4] .

وهناك موازين أخرى نقلها السودانيون عن المصريين، والتي تعود إلى عهد الخليفة الفاطمي المنصور، ومنها الجنيه الذي يساوي1.48 غراما، والرطل الذي يساوي 377،77 غراما، والمن، ويساوي 472،22 غراما[5] .

ج. المكاييل:

لكيل الطحين والحبوب استعمل السودانيون المكاييل الإسلامية المتمثلة في ما يلي:

1 . **المد النبوي :** وهو ينسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي انتقل إلى السودان عن طريق المغرب ، و يساوي سعة أربعة ألواح بجمع اليدين . ويقدر بحوالي 0،75 لترا تقريبا ، لكن يلاحظ وجود اختلاف بين المد في المدن المغربية والسودانية، حيث وجد في مدينة جني المد الذي يحتوي على عشر حفنات كبيرة ، ومضاعفها هو (السوال) ويساوي أربع مرات المد[6].

---

(1) Ibid, p 411.

(2) زبادية ، المرجع السابق ، ص 54 .

(3) زبادية ، المرجع السابق ، ، ص 54

(4)Mauny (R) : Op.cit. .P413

(5) Ibid.

(6)Mauny (R) : Op.cit. .P413

2. الصاع: ويساوي أربعة أضعاف المد ، وهو ما يعادل ثلاث لترات تقريبا.[1]

3. القنطار : و قد استعمل القنطار في مدينة أودغست، وكان يستعمل في كيل القمح والزبيب والثمار، ويقدر بمائة رطل تقريبا[2] .

4. **المودي**: ويساوي ما يحمله العبد، أو الرجل، من حبوب أو غيرها في كيس كان يتخذ من جلد الحيوان[(3)].

4 .في الميدان الاجتماعي:

يقول المؤرخ الإنجليزي (سبنسر ترمنغهام spencer Trimingham):« إن التأثير المغربي الإسلامي في حياة الأفارقة، لمسناه من خلال توحيد المعالم الأساسية للحياة اليومية»[(4)].

فالحياة الاجتماعية اليومية إذن، تعد مرآة لحضارة أمة وثقافتها، وهو ما ينطبق على الشعوب السودانية بعدما احتكت بالمغاربة المسلمين، فأصبحت كل مدينة سودانية تحتوي على مدرسة قرآنية ومسجد وأطفال يذهبون إلى الكتاب، وانتشرت العادات الإسلامية، كالختان وطريقة الاحتفال بالزواج وطريقة إقامة الجنائز، وأصبح الاعتقاد بالقضاء والقدر، القوة التي رفعت كل بيت من بيوت السودان[(5)] .

أ . الحياة الأسرية:

أسس الإسلام في بلاد السودان نموذجا للأسرة البسيطة، المكونة من الأب والأم والأبناء. ذلك أن هناك قبائل مثل (الباغان PAGAN) و(الهوسا) . كانت تعيش في أسر تتكون من ثلاثين إلى مائة فرد، وبعد الإسلام أصبحت تعيش في أسر مكونة من أب ومعه زوجة أو زوجتان والأبناء[6]. فقد أصبحت الأسرة السودانية المسلمة مستقلة، وفي نفس الوقت حافظت على

---

(1) زبادية ، المرجع السابق ، ص 54

(2)البكري، المصدر السابق ، ص 158

(3)البكري، المصدر السابق. ، ص 158

(4) Islam in West Africa .p42

(5) Ibid,

(6) Delafosse (M), Les nègres, Op.Cit, p74.

دورها الإقتصادي والسياسي ، وأصبحت وراثة الملك تنتقل من الأب إلى الابن أو الأخ ، بعدما كانت تنتقل من الخال إلى ابن الأخت[1] .

كما اتخذت الأسرة السودانية أسماء عربية إسلامية ، وحتى ملوكهم كانوا يحملون أسماء عربية . فمملكة سنغاي، عرفت ابتداء من عهد الملك (علي كولن)، الذي تولى الحكم عام 754هـ/ 1335م، عدة ملوك اتخذوا أسماء عربية، خلافا لأمراء أسرة(ديا DiA) الذين سبقوهم على عرش سنغاي . ومن ملوكهم نجد(علي كولن) وأخاه (سليمان ناري، (إبراهيم كاباي)، (عصمان كانانا)، (محمد داع)، (محمد قونقيا)، وغيرهم . وكانت معظم الأسماء العربية متبوعة بصفات بلغة سنغاي ، فمثلا سليمان ناري تعني سليمان التافه ، وإبراهيم كاباي تعني إبراهيم العالم ،وعصمان كانانا تعني عصمان المفيد، إلى غير ذلك[2] .

ب. العادات:

أدخل الإسلام عادات جديدة على المجتمع السوداني، حيث اختفت العادات القديمة مثل عبادة الأجداد والآباء، وحضور الاحتفالات والطقوس الوثنية، وحلت محلها عادة إحياء المواسم الدينية، فقد حضر ابن بطوطة خلال زيارته لمالي، عيدي الفطر والأضحى، إذ يروي لنا بأن الناس كانوا يخرجون يوم العيد إلى المصلى الموجود بالقرب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان، فيبدؤون بالتهليل والتكبير ، ويصلون صلاة العيد، ويسمعون الخطبة،التي يذكر فيها الخطيب المصلين بلزوم الطاعة السلطان، وبعد صلاة العصر، تبدأ الاحتفالات التي يقوم بها السلحدارية[3]، من لعب بالسلاح، وألعاب بهلوانية يقوم بها الغلمان[4] .

فالسودانيين أخذوا عن المغاربة المسلمين أدق تفاصيل احتفالاتهم ، إلا أنهم كانوا يتخذون أسماء مغايرة لما كانت تسمى به في العالم الإسلامي . فكانوا يطلقون على المناسبات الدنية أسماء محلية ، فيسمى عيد الأضحى في السنغال(تابا سكي)، وعيد الفطر(كوري) ، وعاشوراء أصبحت تسمى (تامخاكات) ، وعيد المولد النبوي(غامو) [5].

---

(1) Trimingham (S) , Op. CiT, .P 126 .

(2)Trimingham (S) , Op. CiT, .P 126 ., p127.

(3) أصل الكلمة تركي ، ويقصد به فرقة السلاح . من الجند .

(4) ابن بطوطة ،المصدر السابق، ص 686.

(5) قداح (نعيم) ، المرجع السابق ، ص 114 .

وكان السودانيون يحتفلون أيضا بالختان،- الذي يكون عادة في سن العاشرة احتفالا كبيرا ، وكان يقوم بعملية الختان الحداد أو القصاب، بينما تقرع طبول(التام تام)، ويعتبر الختان عند أهل السودان دلالة على بدء مرحلة الشباب ، بحيث أن كلمة غير مختون كانت تعد بمثابة شتيمة كبرى لصاحبها[1].

كما تفشت بعض العادات الإسلامية في السودان الغربي ، وانتقلت إليهم عبر التجار المغاربة. منها عادة التغطية لوجوههم اعتقادا منهم بأن الفم يعد عورة مثل الأعضاء التناسلية يجب إخفاؤها[2]. فهذه العادة يبدو أنها انتقلت إليهم عن طريق تجار صنهاجة ، ولمتونة المعروفين هم أيضا بالملثمين، كما أننا نجد هذه العادة منتشرة عند الطوارق الذكور، و الذين مازالوا يتمسكون بها إلى غاية اليوم .

ومن العادات التي أصبحت تميز المجتمع الإسلامي السوداني، الأمانة، والتي تعد خصلة أخلاقية حث عليها الإسلام، ولم يعد يتعرض السودانيون لمال من يموت ببلادهم، حتى وإن كان من البيض. كما انتشرت فيهم مواظبتهم للصلوات ، وضربهم أولادهم عليها،4 وهي أخلاق إسلامية انتشرت فيهم كلما ازداد الإسلام توغلا عندهم .

ثلثا: اللّباس:

يصف بن سعيد لباس أهل التكرور الذين لم يحتكوا بالبيض من بلاد المغرب أو غيرهم، بأنه يغلب عليهم جلود الحيوانات المدبوغة، ومن خالطوا البيض منهم، فقد اتخذوا لباسا صوفيا أو قطنيا ، أما أهل البادية، فكانوا عراة لا يعرفون اللباس إلا المسلمين منهم[3].

أما القزويني، فإنه يقول عنهم بأنهم عراة برجالهم و نسائهم ، وتكتفي نساؤهم بستر قبلهن بخرزات العقيق، يقمن بتركيبها في خيوط ، ويعلقنها ، بينما الأشراف المسلمون منهم، فكانوا يلبسون قميصا طوله عشرون ذراعا.

إن هذه الشهادات تبين بأن السودانيين لم يعرفوا اللباس والستر قبل احتكاكهم بالمسلمين،و انتشار الثقافة العربية الإسلامية. لذلك نجد أن تأثير اللباس العربي الإسلامي

---

(1) **Delafosse (M)**, Op. Cit . p74.

(2) **قداح (نعيم)** ، المرجع السابق ، ص 114

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص693

عند أهل السودان كان واضحا . فكانوا ينظرون إلى كل ما هو قادم إليهم من بلاد الإسلام، على أنه رمز للتحضر والأناقة. فكان ملك الكانم (دوناما ديلابامي Donama Dilabami) [1]، يستورد ثيابه من الحضرة التونسية[2] ،خاصة وأن هذا الملك كانت تربطه علاقات تجارية مهمة بسلطاني الحفصيين أبي زكريا و المستنصر ، وانتعشت في عهده حركة التبادل التجاري بين البلدين[3] .

وكان ملك مالي (منسا موسى)، يلبس سروالا كبيرا، مكونا من حوالي عشرين قطعة ، وهو الوحيد الذي كان يلبسه بين قومه .وكان وزراؤه يلبسون الجلابيب ويربطونها عند بطونهم[4]. وهو لباس أخذوه عن الفاطميين و يعرف بالتحنيك، و ونفس اللباس الذي عرف عند المغاربة و المعروف بالحنكا، أو اللّحفة، و هو عبارة عن غطاء للرأس ما تزال ترتديه إلى غاية وقتنا الحالي العديد من النساء في الجزائر، و تونس.

وكان المحنكون السودانيون هم من الفقراء وحاشية الخليفة[5]، أما أغلبية الشعب المالي المسلم، فيلبسون لباسا أبيض مصنوعا من القطن كان يعرف عندهم بالقميص. كما كانوا يلبسون العمائم والجلباب الشبيهة بلباس المغاربة. أما الأبطال من فرسانهم، فكانوا يتميزون بلبسهم السراويل متسعة، ويسرجون خيولهم، و يتشبهون في ركوب الخيل بالعرب[6].

كما تأثر المجتمع السنغائي باللباس المغربي و المشرقي، حيث يقول في هذا القلقشندي: « و لباسهم عمائم مثل العرب و قماشهم بياض من ثياب قطن تنسج عندهم في نهاية الرقة و اللطف تسمى الكميصا و لباسهم شبيه بلباس المغاربة، جلباب و دراريع[7] بلا تفريج»[8]. وكان

---

(3)Cornevin (Ret.M), Op Cit, p 171 .

(4)Al Omari (A), Op. Cit, P65

(1)**القلقشندي (أبو العباس أحمد):**صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، 1333هـ /1915م ، ج 3 ، ص 484 .

(4)Al Omari(A), OpCit, P66. .

(5) **القلقشندى**، المصدر السابق ، ج 5 ، ص 298 .

(6) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 691

(7) الدراريع هي بمثابة الفساتين عندنا.

(8) القلقشندى، المصدر السابق، ج 5 ، ص 298.

وجهاء القوم حريصون على الظهور بثياب فضفاض امام العامة كمظهر من الرفعة والمكانة الاجتماعية اقتداء بما كان يفعله نظراءهم من المغرب الإسلامي و مشرقه[1].

أما بالنسبة للنساء، فإن التأثر بلباس المسلمين لديهم بقي جزئيا، ومقتصرا على الحرائر منهن فقط. فبينما كانت النساء الحرات تلبسن الحجاب الشرعي، كانت الجواري والخادمات والبنات الصغار، يظهرن للناس عرايا باديات العورات. وكانت النسوة تدخل على السلطان منسا سليمان في شهر رمضان وهن عاريات غير متسترات .

د . الجالية العربية والمغربية:

إن وجود الجالية العربية في السودان الغربي، كان قبل أن تبدأ أوربا بالاهتمام بإفريقيا. فالعرب كانوا قد اكتشفوا السودان في وقت مبكر جدا، حيث وجدت تجمعات سكانية عربية شبيهة بالمستوطنات قبل دخول الإسلام إلى المنطقة[2] . لكن مع دخول الإسلام وازدهار التجارة الصحراوية، تنقل عدد كبير من المغاربة العرب والبربر إلى بلاد السودان كتجار، أو كلاجئين سياسيين، أو كمحاربين أو دعاة، وكانت الجالية العربية التي قدمت مع جيش بني وولاة بني أمية وأحفادهم من بعدهم، تمثل النواة الأولى لهذه الجاليات[3] .

وابتداء من القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد، ازدهرت الجالية العربية والإسلامية، وأخذت مكانة وتقلدت مسؤوليات حتى في غانة وجاو[4] . كما يذكر لنا ابن بطوطة عددا من المغاربة الذين كانوا يعيشون في كوكو (جاو)، فمنهم من كان أصله من مدينة مكناس المغربية ، ومنهم من جاء من وجدة ، ومنهم من جاء من تازا ، كما وجد في مدينة تكدا رجل مكلف بشؤون الجالية المغربية يلقب بشيخ المغاربة، وهو سعيد بن الجازولي. وكانت الجالية العربية تحظي باهتمام وتقدير كبيرين من طرف أهل السودان، وتقلدت مناصب ووظائف هامة، فكان منهم القضاة، والأئمة والمستشارون.

---

(1) Mauny (R) , Op.Cit, P461 .

(2) متز (أدم)، الحضارة الإسلامية ، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريدة ،دار الكتاب العربي، بيروت، 1967،ص374.

(2) Youssouf Tata Cissé et Wa kamissoko , La grande geste du Mali, tome 1, Des origines la fondation de l'empire, Editions Karthala, Paris, 1988. P251.

(3) الوزان(حسن)، المصدر السابق، ص 165.

وكانت هناك عائلة عربية في تمبكتو تدعى عائلة توري ، والتي كانت تلقب بتوري العرب ، كونها تعد من أحفاد العرب، أومن أحفاد أولئك المسلمين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام ، كما يؤكد سكان المنطقة أن معظم من يحملون لقب توري بتمبكتو، ينحدرون من سلالة الجنود الذين جاؤوا مع الجيش المغربي إلى السودان خلال حملة الباشا جودر.

كما كانت هناك مصاهرة بين السودانيين والعرب المقيمين عندهم، لاسيما الأغنياء منهم، فكانت المصاهرة تتم حتى مع ملوك السودان، فقد قام أحد ملوك مالي بتزويج ابنتيه من أخوين تاجرين من المغرب ، كما أن زعيم اللمتونين أبا بكر بن عمر، فاتح بلاد السودان، كان قد زوج إحدى بناته لأحد ملوك مالي أيضا، وبذلك اختلط الدم المغربي بالدم السوداني، وأصبح دما واحدا، بعدما أصبح الشعبان ينهلان من نفس الحضارة .

رابعا: نماذج من علماء غرب إفريقيا و إنتاجهم:

1.احمد بابا التنبكتي:

أ.نسبه:

اسمه الكامل هو أبو العباس أحمد بن الحاج أحمد المسك بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت المسوفي، الصنهاجي، التنبوكتي، يعرف باسم بابا، ولقد ذكر مولده بنفسه في كتابه « نيل الابتهاج بتطريز الديباج »، حيث قال فيه: « **مولدي كما وجدته بخط والدي ليلة الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة ختام عام ثلاث وستين وتسعمائة(الموافق لـ 26 اكتوبر1556 م)، ونشأت في طلب العلم فحفظت بعض الأمهات وقرأت النحو على عمي أبي بكر الشيخ الصالح، والتفسير والحديث والفقه والأصول والعربية والبيان والتصوف وغيرها على شيخنا العلامة محمد بغيغ، ولازمته سنين وقرأت عليه جميع ما تقدم عني في ترجمتي، وأخذت عن والدي الحديث سماعا والمنطق، وقرأت الرسالة ومقامات الحريري تفقها على غيرهم، واشتهرت بين الطلبة بالمهارة على كلال وملل في الطلب** [1]»

ينتمي أحمد بابا إلى أسرة شهيرة تعرف ب « آل أقيت » ، أصلها من مدينة ولاتة في بلاد الحوض من شرقي موريتانيا، وكان يُعرف أيضا بأحمد بابا التكروري نسبة لبلاد التكرور[2].

---

1 احمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، الجزء الثاني، دراسة و تحقيق : محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1421هـ/2000م، ص 281.

(2)ليلى الصباغ، أحمد بابا التكروري(963- 1036هـ/ 1556- 1627م) في موقع الكتروني:

نشأ أحمد بابا التنبكتي تحت حكم الأمير أسكيا (1549-1582م)، وكانت تنبكتو إذ ذاك من أهم مدن مملكة سونغاي. درس على شيوخ أسرته وعلى العالم الكبير محمد بغيغ الونكري كما مر ذكره في حديث أحمد بابا عن نفسه، وحصل علما واسعا بفضل مطالعاته وعلاقاته مع معاصريه حتى نال مكانة علمية متميزة[1].

لازم احمد بابا شيخه بغيغ أكثر من عشرين سنة، وقال بشأنه في نيل الابتهاج: « ...لازمته اكثر من عشر سنين فقرات عليه بلفضي مختصر خليل و فرعي ابن الحاجب قراءة بحث و تحقيق و تحرير ختمتها عليه ، أما خليل فمرارا عديدة نحو عشر مرات أو ثمان بقراءتي و قراءة غيري، و حضرت عليه التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا اليسير... و ختمت عليه الموطأ قراءة فختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه نحو ثلاث مرات، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وتسهيل ابن مالك قراءة تدقيق وبحث مدة ثلاث سنوات، وأصول السبكي بشرح المحلى ثلاث مرات قراءة تحقيق، وألفية العراقي بشرح مؤلفها، وتلخيص المفتاح بشرح السعد مرتين، وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية، وحكم ابن عطاء الله مع شرح زروق لها، ونظم أبي مقرع، والهاشمية في التنجيم مع شرحها، ومقدمة التاجوري فيه، ورجز المغيلي في المنطق، والخزرجية في العروض بشرح السبتي، وكثيرا من تحفة الحكام لابن عاصم بشرحها لابنه، كلها بقراءتي. وقرأت عليه فرعي ابن حاجب قراءة بحث، جميعه، وحضرته في التوضيح كذلك لم يفتني منه إلا من الوديعة إلى الأقضية وكثيرا من المنتقى للباجي، والمدونة بشرح أبي الحسن الزرويلي، وشفاء عياض، وقرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف، وسمعته بقراءتي، وكذلك صحيح مسلم كله، ودولا من مدخل ابن الحاج، ودروسا من الرسالة والألفية وغيرها، وفسرت عليه القرءان العزيز إلى أثناء سورة الأعراف، وسمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملا، وهو في سفر كبير، ومواضع أخرى منه، وباحثته كثيرا في المشكلات، وراجعته في المهمات، وأجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه، وأوقفته على بعض تواليفي فسره به وقرظ عليه بخطه، بل كتب عني أشياء من أبحاثي، وسمعته يقول بعضها في درسه لإنصافه وتواضعه وقبوله بالحق حيث تعين»[2].

---

https://www.arab-ency.com/ar

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، ضمن **جريدة ميثاق الرابطة**، جريدة الكترونية أسبوعية تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء، العدد238، 2016/10/27، في موقع الكتروني: ***https://www.maghress.com***

(2) احمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج ، مصدر سابق، الجزء2، ص602.

فمن خلال ترجمة احمد باب لشيخه بغبغ نلاحظ استعراض للأحوال الثقافية السائدة والبرامج الدراسية التي كانت سائدة في عصره أي تاريخ للحياة الفكرية في تنبكتو خلال القرن السادس عشر، كما نلاحظ ذلك التداخل بين الثقافة المغربية والإفريقية على مستوى مناهج التدريس المعارف، وهذا دليل على التأثير الثقافي والفكري للمغرب على إفريقيا جنوب الصحراء[1].

ب. محنته :

و لقد ذكر الزركلي العالم احمد بابا في كتابه الأعلام: « أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبوكتي السوداني، أبو العباس: مؤرخ، من أهل تنبكتو في إفريقية الغربية أصله من صنهاجة، من بيت علم وصلاح. وكان عالما بالحديث والفقه. وعارض في احتلال المراكشيين لبلدته (تنبكتو) فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيد إلى مراكش سنة 1002 هـ، وضاع منه في هذا الحادث 1600 مجلد، وسقط عن ظهر جمل في أثناء رحلته فكسرت ساقه، وظل معتقلا إلى سنة 1004هـ، وأطلق فأقام بمراكش إلى سنة 1014 وأذن له بالعودة إلى وطنه. وتوفي في تنبكتو، وكان شديدا في الحق لا يراعي أحدا.... وعلى إثر حملة أحمد المنصور الذهبي الشهيرة إلى بلاد السودان (الغربي)، ومنها حاضرة تنبكتو حيث بلاد صاحبنا أحمد بابا، امتحن في طائفة من أهل بيته بثقافهم في بلدهم في شهر محرم سنة 1002هـ على يد محمود بن زرقون، لما استولى السعديون على بلادهم تمبكتو، وجاء بهم أساري في القيود، فوصلوا مراكش أول رمضان من العام نفسه واستقروا مع عيالهم في حكم الثّقاف إلى أن أحجم أمر المحنة فسرحوا يوم الأحد الحادي والعشرين لرمضان سنة 1004هـ»[2].

كما تحدث ابو الناصري في "الاستقصا" عن نكبة الفقيه أبي العباس أحمد بابا السوداني وعشيرته من آل آقيت والسبب في ذلك: « كان بنو آقيت التكروريون من أهل مدينة تنبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة اثنتين وألف فكان أهل السودان

---

(1) **جمال بامي**، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق.

(2) **الزركلي(خير الدين)**، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980، الطبعة الخامسة، المجلد الأول، ص 123.

قد سئموا ملكة المغاربة وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أذنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم وربما وشي إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش فقبض على جماعة كبيرة منهم كان فيها الفقيه العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن أحمد ثلاثة أحامد ابن عمر بن محمد آقيت المدعو بابا صاحب تكميل الديباج وغيره من التآليف، وكان فيها أيضا الفقيه القاضي أبو حفص عمر بن محمود بن عمر ابن محمد آقيت وغيرهما، وحملوا مصفدين في الحديد إلى مراكش ومعهم حريمهم وانتهبت ذخائرهم وكتبهم»[1].

لقد نُفي أحمد بابا من تنبكتو باتجاه مراكش يوم السبت 18 مارس 1593م بأمر من قائد من جيش المنصور هو الباشا محمود بن زرقون الذي احتل تنبوكتو، وأجبر على الإقامة الجبرية هناك لمدة 14 سنة بعيدا عن أهله، ولم يعد إلى تنبكتو إلا بعد بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي رجع إلى تنبكتو سنة 1607م.

و بعد عودته الى تنبكتو و انقضت محنته، عاد احمد بابا الى نشاطه العلمي المعهود، حيث اخبرناهو بنفسه في نيل الابتهاج، بانه بعد عودته وازدحم علي الخلق وأعيان طلبة تنبكتو، و لازموه، و قرأ عليّه اشهر قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة أبي القاسم بن أبي النعيم الغساني وهو كبير ينيف على الستين سنة ، و قاضي مكناسة الرحالة المؤلف أبو العباس ابن القاضي ، وقرا عليه مفتي مراكش الرجراجي وغيرهم، كما و اصبح يستفتى في كل النوازل التي يستفتى فيها غيره حتى اشتهر اسمه في البلاد من سوس الأقصى الى بجاية و الجزائر وغيرها. وقد قال له أحد طلبة الجزائر حل بمراكش ايام إقامته الجبرية اننا لا نسمع في بلادنا إلا باسمك فقط[2].

ج.تلاميذه:

من تلاميذ الإمام أحمد بابا المشاهير نذكر، ابا العباس ابن القاضي صاحب جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس والغساني، و أبو عبد الله محمد بن يعقوب الآيسي المراكشي الذي لازمه كثيرا وأخذ منه الإجازة؛ والحاج أحمد بن الحاج محمد فهدي التواتي الذي كان شديد القرب منه إذ لازم ليالي وأياما، وشهورا وأعواما، وقد أجازه إجازة

1الناصري(أبو العباس)، الاستقصا ، مصدر سابق، الجزء الخامس، ص ص 129 . 130 .

(2) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص 602.

مطلقة من غير تقييد. و تتلمذ عليه أحمد بن محمد بن داود الجزولي التملي وهو من أبرز رجال العلم بسوس في عصره[1].

د.انتاجه العلمي:

أما عن مؤلفات أحمد بابا فقد قال عنها هو بنفسه : «وألفت عدة كتب تزيد على أربعين تأليفا: كشرحي على مختصر خليل من أول الزكاة إلى أثناء النكاح ممزوجا محرراً، وحواشي على مواضع منه، والحاشية المسماة منن الرب الجليل في مهمات تحرير خليل يكون في سفرين، وفوائد النكاح على مختصر كتاب الوشاح للسيوطي»[2] وغيرها.

كما وضع على مختصر خليل من الزكاة إلى أثناء النكاح مؤلفا في جزئين سماه "المقصد الكفيل بحل مقفل خليل"، وحاشية عليه سماها منن الجليل في فتح مهمات خليل، كما كتب فتح الرزاق في مسألة الشك في الطلاق، والزند الوري في مسألة تخيير المشتري، وتنبيه الواقف على تحرير نية الحالف ، كما الف وتعليقا على أوائل ألفية ابن مالك سماه النكت الوفية بشرح الألفية، وله أيضا نيل الأمل في تفضيل النية على العمل، وغاية الإجادة في مساواة الفاعل للمبتدأ في شرط الإفادة وهو في كراسين ، وآخر سماه "النكت المستجادة في مساواتهما في شرط الإفادة، وما رواه الرواة في مجانبة الولاة، وشرح الصغرى للسنوسي، ومختصر ترجمة السنوسي، ونيل الابتهاج بتطريز الديباج، و "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" اختصر فيه "النيل"، وخمائل الزهر فيما ورد من كيفيات الصلاة على سيد البشر، والدرر النضير في ألفاظ الصلاة على البشير، وسؤال وجواب في جواز الدعاء باللّهم ، وشرح الصدر وتنوير القلب ببيان مغفرة ما نسب للجانب النبوي من ذنب، والكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، المناقب الفاخرة في أسماء سيد الدنيا والآخرة، والمنهج المبين في شرح حديث أولياء الله الصالحين، والبدور المسفرة في شرح حديث الفطرة، وفتح الصمد الفرد في معنى محبة الله تعالى للعبد، نزول الرحمة في التحديث بالنعمة، ودرر الوشاح في فوائد النكاح وهو مختصر لكتاب الوشاح للسيوطي، ونيل المرام ببيان حكم الأقدام على الدعاء لما فيه من إيهام وهو مأخوذ من مسودة تأليفه فتح القدير للعاجز الفقير في الكلام على دعاء محمد بن حمير، وتحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء ومختصره مرآة التعريف في فضل العلم الشريف،

---

(1) جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق

(2) نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص614.

ودرر السلوك بذكر أفاضل الخلفاء الملوك، وأجوبة الأسئلة المصرية، وله أسئلة في المشكلات[1]. وقد وردت معظم هذه المؤلفات في "فهرسة المراكشي، وبعضها الآخر ذكر في كتاب "فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" للعلامة الولاتي.

هـ.اجتهاداته:

من أشهر الاجتهادات العلمية لأحمد بابا التنبكتي فتواه في شأن استرقاق المسلمين من بلاد السودان. فقد وجه بعض المستفتين من بلاد توات رسالة إلى الشيخ أحمد بابا التنبكتي يستفتون فيها عن جواز تملك العبيد المجلوبين من البلاد الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، التي تقرر إسلام أهلها كبلاد برنو وعفنو وكانو وكاغو ونحوها؛ وقد أفرد أحمد بابا الجواب برسالة خالف فيها رأي الإمام الونشريسي (توفي 914هـ) ختمها بقوله، هذا آخر ما تيسر من "معراج الصعود إلى نيل مجلب السود"، وإن شئت فسمه "الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان[2].

حيث بين أحمد بابا أن أهل هذه البلاد مسلمون، أسلموا بلا استيلاء أحد عليهم. ، ومنهم قدماء في الإسلام كأهل مالي أسلموا في القرن الخامس، وقد تصدى الشيخ أحمد بابا لتوضيح المسألة وملابساتها الشرعية والتاريخية، إذ ورد في متن الرسالة التي بعثت إلى الشيخ أحمد بابا: « وقولكم وقد أخبر بعض قضاة السودان أن الإمام الذي استفتحهم وهم كفار اختار إبقاءهم.. ولا يخفى أنه يترتب على التسليم بهذه الرواية التاريخية جواز استرقاق أهل هذه البلاد، وإن حصل إسلامهم بعد ذلك. لقد خالف أحمد بابا هذه الرواية، فهي -في نظره- دعوى بلا دليل، ومما قاله أحمد بابا في رد هذه الشبهة: «واسألوا هذا القاضي السوداني من هذا الإمام؟ وفي أي وقت فتح بلادهم؟ وأية بلاد فتح؟ يعين لكم ذلك كله، وما أقرب كلامه لعدم الصحة، فلو بحثتم الآن لا تجدون أحداً يخبركم بحقيقة ما قال. فما انبنى على كلامه لا يعتبر والله تعالى أعلم »[3].

---

(1)جمال بامي، احمد بابا التنبوكتي، مرجع سابق

(2) يندرج موضوع كتاب معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود، أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان، في إطار نوازل الاسترقاق الخاصة بأهل السودان الغربي جنوب الصحراء، في وقت أضحت فيه هذه البلاد مصدرا لسوق العبيد نحو العالم الجديد، وموردا اقتصاديا مهما للمغرب الأقصى في العهد السعدي.

3 احمد بابا التنبكتي، معراج الصعود في حكم مجلوب الأسود، مخطوط مصور.

ويرتب الفقيه أحمد بابا على هذه المعطيات التاريخية والاستنباطات الشرعية والمقاصدية حكماً في غاية الأهمية، وهو أن كل من عرف أنه من بلاد السودان التي أسلم أهلها، وذكر أنه من تلك البلاد، فيخلى سبيله، ويحكم له بالحرية المطلقة، حيث ان أحمد أطلق هذه الفتوى الجريئة في أوج عظمة الدولة السعدي.

توفي رحمه الله في تنبكتو بعدما عاد اليها ها من منفاه بمراكش بعد19 سنة، حيث توفى فيها بتاريخ إبريل 1627م.

2.الشيخ محمد بن محمود بن أبي بكر التنبكتي المعروف ببغيغ (باكايوكو):

كان هذا العالم أول متن حاز على لقب شيخ الإسلام في منطقة غرب إفريقيا، وكان من أشهر علماء غرب إفريقيا في العالم الإسلامي، يصفه تلميذه احمد بابا التنبكتي بقوله: «شيخنا و بركتنا الفقيه العالم المتفنن الصالح العابد الناسك المفتي، من خيار عباد الله الصالحين و العلماء و العاملين مطبوعا على الخير و حسن النية و سلامة الطوية والانطباع على الخير و اعتقاده»[1].

درس بغيوغو علوم العربية والفقه على أبيه القاضي محمود ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال: الناصر اللقاني، ومحمد البكري، وبعد الحج رجع إلى السودان الغربي وتفرغ للعلم وطلابه، وتوفي سنة 1593م، وقال عنه أحمد بابا " كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، أفنى فيه عمره مع تشبثه بحوائج العامة وأمور القضاء[2]، درس بغيوغو علوم العربية والفقه على أبيه القاضي محمود ثم رحل للمشرق وحضر مجالس العلم بمصر حيث تتلمذ على أشهر العلماء من أمثال الناصر اللقاني، و محمد البكري، وبعد الحج رجع إلى السودان الغربي وتفرغ للعلم وطلابه، وتوفي سنة 1593م، وقال عنه أحمد بابا : « كان طويل الروح في التعليم لا يأنف من مبتدئ ولا من بليد، أفنى فيه عمره مع تشبثه بحوائج العامة وأمور القضاء، إذ لم يصيبوا عنه بديلا و لا نالوا له مثيلا»[3].

---

(1)نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص600.

(2) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية (غرب إفريقيا نموذجا)، موقع الكتروني:
/http://africanulama.org/blog/2017/09/09

(3)نيل الابتهاج، ص601.

ويضيف أحمد بابا في ترجمته : «لقد صارفي آخرة الحال شيخ وقته في الفنون لا نظير له لازمته أكثر من عشر سنين، فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل وابن الحاجب قراءة بحث وتحقيق، وختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، وحضرته كثيرا في المنتقي والمدونة بشرح المحلى ثلاث مرات وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحها »، وختم الترجمة بقوله :« وهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه»[1] .

إن بغيوغو إلى جانب دروسه مؤلفا ومحشيا على أمهات كتب الفقه والحديث، وحرر عدة فتاوى، وقد جمع تلميذ أحمد بابا مؤلفاته في مجموع مستقل، وكان بغيوغو في مدينة تنبكتو يوم نكبة العلماء ولكن لم يمسه ضرر من الجيش المغربي، وتوفي سنة 1593م بمدينة تنبكتو[2].

3.عبد الرحمان السعدي:

هو الشيخ عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي، و لد عام 1596م، درس بتنبكتو، بدأ يهتم بالتاريخ منذ شبابه، فكان مطلعا أكثر من غيره على، ويعتبر كتابه تاريخ السودان من المصادر المهمة لتاريخ المنطقة السياسية والثقافية والاجتماعية , في عهد دولة سنغي , وما بعدها أي عهد الباشاوات , حيث أرخ لدولة سنغي الإسلامية من نشأتها إلى ما بعد سقوطها[3] .

4.الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمني الأغدسي :

ينسب الى مدينة أغاديس التي أسهمت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية في منطقة آير وخارجها إسهاما بارزا ، وذلك بكثرة علمائها ، وإنتاجا تهم العلمية.

وكانت النهضة العلمية في هذه المنطقة قد بدأت في آير أولا بمجيء **الشيخ عبد الكريم المغيلي إليها** عام**1479** م الذي افتتح فيها مدرسة قرآنية للصغار، وأخرى للكبار لتعليم علوم الدين والعربية في تيغدا ، وبقي فيها فترة قبل مواصلة رحلته إلى كانو وكاتسينا ، وقد تتلمذ على يديه كثيرون، ومن أشهر طلابه الذين برزوا وساهموا في نشر الثقافة العربية الإسلامية **الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمني الأغدسي** ، الذي ذكره الشيخ أحمد بابا التمبكتي في نيل الابتهاج فقال : «فقيه نبيه زكي الفهم حاد الذهن وقاد الخاطر مشتغل بالعلم في لسانه حدة ،

---

(1) نفسه، ص602.

(2)جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة.... مرجع سابق.

(3) محمد غربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، مؤسسة الخليج للطباعة و النشر، الكويت، د ت، ص533.

له تعاليق من أحسنها تعليقه على قول خليل وخصصت نية الحالف »[1] و اختصر الشيخ أحمد بابا هذا التعليق وسماه " تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف " ، وله جزء بعنوان " وجوب الجمعة بقرية أنوسامان، وألفه في الرد على الذين يرون أن قرية أنوماسان لا يصح إقامة الجمعة فيها لأن تعداد سكانها لا يسمح بذلك ، والشيخ يرى أنه يجب إقامة الجمعة فيها مع العدد الموجود في القرية . وقال الشيخ أحمد بابا : « فأرسلوه أي الكتاب إلى علماء مصر فصوبوه»[2]، أي صوبوا الشيخ العاقب فيما ذهب إليه في جواز إقامة الجمعة في قرية أنو سامان.

ومن إنتاجاته العلمية أيضا : الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمود ، وله أيضا أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير ، وقد أجاب فيها عن أسئلة السلطان الحاج أسكيا محمد ، وهذه المعلومات القليلة عن شخص العاقب تشهد له بالمكانة التي كانت له لدى العلماء ورجال السياسة في عصره[3].

ومن علماء آير الذين ساهموا مساهمة فعالة في نشر الثقافة العربية والإسلامية تدريسا وتأليفا في تلك الفترة الشيخ شمس الدين النجيب بن محمد التيغداواي ، وقال أحمد بابا التمبكتي عنه: « أحد شيوخ العصر، معه فقه وصلاح، شرح مختصر خليل بشرحين : كبير في أربعة أسفار ، وصغير في سفرين» و له تعليق على كتاب المعجزات الكبرى للإمام السيوطي، وشرح العشرينيات للفازازي، وله أيضا الطريقة المثلى إلى الوسيلة العظمى[4].

---

(1) المصدر السابق، ص217.

(2) نفسه

(3) جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية، مرجع سابق.

(4) احمد بابا، مصدر سابق، ص348.

المحور الثاني

دور مملكة مالي في نشر الحضارة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا

اولا: تاريخ انتشار الإسلام و الثقافة العربية في مالي:

1. دور التجار المسلمين خلال القرن الخامس الهجري

2. مجهودات ملوك مالي

3. دور الرحلات الدينية و البعثات العلمية

ثانيا:المظاهر الحضارية لمملكة مالي :

1. مظاهر الحياة العلمية: (دور المملكة في نشر التعليم والثقافة العربية الإسلامية)

النظام التعليمي:

نشر اللغة العربية

نشر المذهب المالكي

حركة التاليف

2. دور مالي في العمران الاسلامي .

3. دورها في التنمية السوسيو – اقتصادية .

4. إسهاماتها في بناء الصرح الحضاري العالمي .

أ. في ميدان التشريعات(-كوروكان فوكا)

ب. في ميدان التنظيمات السياسية و الاقتصادية

ب.في ميدان الفن (الموسيقى ، الفن التشكيلي ، الرقص)

ج .في الميدان الجغرافي (الكشوفات)

يمتد تاريخ منطقة غرب إفريقيا أو ما كان بعرف قديما بالسودان الغربي، إلى عصور موغلة جدا في القدم، تتجاوز الألفية الثامنة قبل الميلاد، لكن ما وصلنا من هذا التاريخ الواسع العريق إلا شذرات اغلبها تكهنات و استنتاجات قام بها علما الآثار و الانثربولوجيين الأوربيون، خلال الفترة الاستعمارية و ما بعدها، و ذلك نظرا للفقر الشديد الذي تعانيه مادة الموضوع الخاص بتاريخ هذه المنطقة خلال تلك الفترات المظلمة من تاريخها.

و بداية من القرن الثاني للهجرة/السابع للميلاد، بدأت تظهر الكتابات حول ممالك السودان الغربي ، و أضحت التفاصيل حول هذه المنطقة تتضح أكثر فأكثر بسبب بداية التدوين التاريخي الذي كان يقف وراءه الرحالة و الجغرافيون المسلمون، سواء من خلال رحلاتهم او من خلال روايات تجار القوافل الذين بدؤوا يتدفقون على المنطقة الواقعة جنوب الصحراء.

و لعل اكبر مملكة حظيت بذلك الصيت الكبير و ذلك الكم الكبير من المعلومات التاريخية هي مملكة مالي الإسلامية، بفضل سمعة ملوكها المسلمين من جهة و من جهة اخرى بفضل الدور الذي أصبحت تضطلع به و مكانتها في العالم الإسلامي من خلال دورها الملموس و لمستها الحضارية الواضحة بالنسبية للحضارة و الثقافة العربية الإسلامية، و غيرت تلك الصورة النمطية التي طالما لصقت بالممالك الإفريقية جنوب الصحراء الوثنية الغارقة في اوحال الشعوذة و السحر و التخلف الحضاري.

فما هي جذور انتشار الإسلام في مملكة مالي، و ارتباطها حضاريا بالأمة الإسلامية ، وماهي مظاهر اسهاماتها في الثقافة العربية الاسلامية ؟

أولا: تاريخ انتشار الإسلام و الثقافة العربية في مالي:

1 . دور التجار المسلمين خلال القرن الخامس الهجري:

رغم أن التاريخ الدقيق لظهور مملكة مالي ككيان سياسي، لا يزال غامضا بسبب نقص المعلومات التاريخية المدونة حول الفترة التي سبقت القرن خامس الهجري، فكل ما كتب حول هذه المرحلة هي معلومات استخلصت من التراث الشفوي المنقول للمالنكي[1]،

لكنه ابتداء من القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد بدات تظهر المعلومات حول هذه المملكة و خاصة بسبب انتعاش تجارة القوافل بين تجار شمال افريقيا و جنوب الصحراء، و التي بفضلها تمكنا من رصد اول الزعامات المالية التي تعاملت مع التجار المغاربة، و هو ما يجعلنا نفهم بان تطور المعلومات حول مملكة مالي و دول منطقة نهري النيجر و السنغال كانت يتبع تطور العلاقات التجارية بين هذه الممالك و دول المغرب الإسلامي.

و نفهم من هذا الامر أيضا بأن احتكاك سكان منطقة النيجر و السنغال بتجار المغرب الإسلامي جعلهم يعتنقون الإسلام بطريقة سلمية و سلسة، و هو ما جعل اهل السودان الغربي يندمجون شيئا فشيئا مع المجتمع الإسلامي و و ثقافته العربية الاسلامية، و ينهلون منها لتبدأ مرحلة جديدة من تاريخهم ترتبط ارتباطا قويا بالحضارة العربية الاسلامية وتصبح جزءا من تاريخها.

أما بالنسبة لملوك مالي فإن أمر إسلامهم يبقى موضوع جدل بين المؤرخين ، لكنها لاغ تخرج عن اطار العلاقات التجارية التي اقامها ملسمو المغرب مع ملوك و تجار مالي، و مما يعزز هذه الفكرة هو وجود نص تاريخي مشهور تداوله كل من البكري[2]و المصادر الاباضية و على رأسها الدرجيني[3]، و الذي تروي قصة إسلام أول ملك مالي على يد تاجر مسلم ، ومفاد هذا النص أن هذا الملك: « قد أجدبت بلاده عام بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، ولا يزدادون إلاّ قحطا وشقاء، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم

---

(1) **احمد الياس**، دور فقهاء الاباضية في اسلام مملكة مالي، ضمن موقع الكتروني:

https://om77.net/forums/thread/34761

(2) **البكري(أبو عبيد الله بن عبد العزيز)**، المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، مقتبس من كتاب المسالك و الممالك. مكتبة أمريكا و الشرق ميزونوف، باريس، 1965م.ـ **احمد الياس**، دور فقهاء الاباضية في اسلام مملكة مالي، ضمن موقع الكتروني:

https://om77.net/forums/thread/34761

(3) **الدرجيني(أبو العباس احمد بن سعيد)**، طبقات المشائخ بالمغرب.تحقيق وطبع:إبراهيم طلاي، مطبعة البعث الجزائر، دون تاريخ. الجزء الثاني.

السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته، واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه... ولم يزل به حتى اسلم وأخلص نيته واقرأه من كتاب الله مما لا يسع جهله، ثم استتاب به ليلة الجمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب القطن.... فقام المسلم يصلي والملك يؤمن فما انفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم مذ ذاك بالمسلماني. » [1]

نلاحظ من خلال نص البكرة بان اسم هذا الملك كان المسلماني ، بينما يسميه ابن خلدون بـ برمندانة حيث يقول : «... يذكرون أول من أسلم منهم ملك اسمه برمندان .... وحج هذا الملك و اقتفى سننه في الحج ملوكهم من بعده»[2]. بينما يرجح سبنسر تريمنغهام بان برمندانة ما هو إلا لقب لهذا الملك و تعني بلغة المندي ملك مالي[3].

و من خلال نص البكري وابن خلدون و القلقشندي[4]، نستنتج بان ملك مالي الذي اسلم كان قبل تاسيس امبراطورية مالي بقيادة سوندياتا كيتا التي ظهرت خلال القرن السابع للهجرة/13م، وهذا تزامنا مه استقرار الاباضية بعد سقوط دولتهم في واحات فزان و غدامس و سدراتة و ورجلان و غرداية، منذ القرن الثاني للهجرو/ الثامن الميلادي، و الذي تعزز باعتناق مجموعات من قبيلتي هوارة و زناتة البربريتين للمذهب الاباضي ، حيث ارتبط الاباضية بتجارة الصحراء و تخصصوا في التجارة مع بلاد السودان [5]. و تعزز دور الاباضية اكثر في تجارة الصحراء مع ظهور الدولة الرستمية الاباضية في تيهرت عام 776م.

---

(1) **البكري**،المصدر السابق ، ص 178.1

(2)ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ /2000م، المجلد السادس، ص 266.

(3) **Trimingham (Spencer)**, The history of Islam in west Africa. Oxford University press, London, 1963, p25.

(4) القلقشندي'ابي العباس، صبح الأعشى في صناعة الانشا، المطبعة الأميرية ، القاهرة، 1915،المجلد الخامس، ص292.

(5) **محمد علي دبوز**، تاريخ المغرب الكبير القاهرة، 1963، ج3، ص 349 .

و لقد كانت القوافل الاباضية تتضمن مشروعا اقتصاديا و دعويا في نفس الوقت فلقد كان يتطلب في قائد القافلة العلم و الدراية في فقه التجارة، حسبما لمسناه من قصة ابن الصغير حول منع عبد الوهاب بن عبد الرحمان بن رستم لابنه افلح من السفر إلى تجارة السودان بسبب اخفائه في الاجابة على مسالة تخص الربا[1]. كما تشير المصادر إلى أن الاباضية كانت لهم مؤسسة علمية تسمى مجلس العزابة و التي تضم كبار رجال العلم سخروا جهودهم للدعوة الاسلامية، حيث وجد عدد من رجالها في بلاد السودان [2].

لهذا فإننا يمكن أن نقول بان التجار الاباضية كانوا أول من قام بممارسة الدعوة الاسلامية في غرب افريقيا قبل مجيء فقهاء المذاهب الاخرى، و حتى الشهادة التي ادلى بها الشماخي ومفادها: « **بلاد السودان بغانة و ما يليها كانت تدين بالمذهب الاباضي حتى تسامعت بهم المخالفون فقصدوها من كل صوب فردوهم إلى مذاهبهم.**»[3]. فانها كلها معطيات تجعلنا نعتقد بان النص الذي اورده البكري و الذي يعد اقدم نص يتحدث عن اسلام ملك مالي(يعود إلى القرن الخامس الهجري/11م)، و الذي تناقلته بعد ذلك مصادر اباضية و غير اباضية ، كان الداعية التاجر هو احد فقهاء الاباضية. و حتى اذا رجعنا إلى الدرجيني فإنه يقول بان التاجر صاحب الدعوة هو علي بن يخلف" الذي سافر إلى بلاد غانة سنة 575هـ/1180م [4].

2. مجهودات ملوك مالي:

لقد ذكر المقريزي[5]، و ابن خلدون اسما بعض ملوك مالي الذين اسلموا و أدوا فريضة الحج، منهم موسى الاكوي الذي يعد اول من حج منهم بعد برمندانة، و منهم منسا أولى(علي) ابن سونديانا كيتا، الذي حج أيام حكم الظاهر بيبرس في مصر، و أيضا ساكورة[1].

---

(1) **ابن الصغير**، أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق وتعليق: د. محمد ناصر، وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص81.

(2) **احمد الياس**، المرجع السابق. انظر ايضا: **الدرجيني**، المصدر السابق، ص 326

(3) **الشماخي**، نقلا عن احمد الياس، المرجع السابق.

(4) **الدرجيني**، طبقات المشايخ، ص ص 137، 138.

(5)**االمقريزي(تقي الدين)** ،لذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك. تحقيق:جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 1420هـ/2000م . ص56.

أما أشهر من تحدثت عنه المصادر من الحجاج الماليين فهو منسا موسى بن ابي بكر الثاني، الذي قام ببعث للاستلام في مملكته من خلال محاربة الوثنيين في الجنوب، ونشر الثقافة العربية الاسلامية، و صبغ المجتمع المالي بالصبغة الاسلامية ، في المجالات السياسية والاقتصادية و الاجتماعية و الثقافية [2]

وقد بلغ تعلق منسا موسى بالإسلام وبأهله، حدا جعله يطلب من شريف مكة خلال تواجده بها أن يرسل معه إلى مالي اثنان أو أربعة من الأشراف المنحدرين من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته ليكونوا رمزا للمباركة التي حضي بها، ويستمد منهم شرعية ملكه أمام رعيته، وتتبرك أرض السودان بخطوات أقدامهم، وأعلن عن مكافأة تقدر بألف مثقال من الذهب لمن يريد الذهاب معه، وفي الأخير استطاع أن يجلب معه أربعة أشخاص من قريش ومعهم عائلاتهم، ومنح كل واحد منهم ألف مثقال ذهب، وأنزلهم في منطقة تسمى شنشن في ضواحي مدينة جني،لكن يعتقد بأنهم ليسوا من الأشراف[3].

و خلال زيارة ابن بطوطة لمملكة مالي وجد بها ملك كان حريص على نشر القيم الإسلامية بين رعيته، و هو منسا سليمان شقيق منسا موسى ، الذي كان محبا للعدل و مقربا للعلماء والفقهاء، ويحرس على تعليم القران و صلاة الجماعة لرعيته[4].

3.دور الرحلات العلمية و الدينية في نشر الإسلام في مالي:

إضافة إلى مجهودات التجار الإباضية و غيرهم في نشر الإسلام بين أهالي مملكة مالي، فإن رحلات الحج و الرحلات التابعة للبعثات العلمية من بلاد المغرب و المشرق إلى مملكة مالي كان لها دور عظيم في ربط هذه المملكة بالأمة الإسلامية من الناحية الحضارية.

---

(1) ابن خلدون، العبر ، مصدر سابق، مجلد5، ص 496.

(2) ابن خلدون، العبر، مصدر سابق، ص483.، انظر أيضا: **العمري(ابن فضل الله شهاب الدين)** المتوفى سنة 749هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق: عزة احمد عباس،الطبعة الأولى، أبو ظبي ، المجمع الثقافي،2002م، السفر الرابع، ص102.

(3) **Mahmoud kati** , Tarikh el fettach. Traduit par: O.Hodas et Maurice Delafosse. Paris, 1913.,p63.

(4) شعباني نور الدين، دور ملوك السودان في نشر الإسلام في السودان الغربي بين القرنين الخامس و العاشر الميلاديين، مجلة كان التاريخية، العدد الرابع عشر، ديسمبر 2011م، ص 47.

فبالإضافة إلى ما جلبه منسا موسى من رحلته الشهيرة إلى الحج، فان هناك بعثات علمية أرسلها منسا موسى و غيره من ملوك مالي إلى جامعات فاس و القرويين و الأزهر و الزيتونة والحجاز، من أجل تطوير معارفهم العلمية ليوظفوها في خدمة هذه النهضة عند عودتهم إلى بلادهم، فلقد وجد في جامع الأزهر رواق خاص بالطلبة الوافدين إليه من السودان الغربي يعرف برواق البرتية[1].

وما زالت الروايات الشفوية تذكر بأن الملك منسا موسى كان قد اشترى عدد من الدور لإيواء الحجيج والطلبة في كل من القاهرة ومكة المكرمة[2]. حيث وجدت في القاهرة جالية هامة من الطلبة والفقهاء السودانيين منذ العهد الفاطمي، فقد اندمجوا داخل المجتمع السوداني وكان لهم حي خاص بهم يعرف ببولاق التكرور، وكانت هذه الجالية متجذرة بقوة في الميادين التربوية، الثقافية والدينية في مصر، وذلك بفضل العلاقات القوية التي كانت قائمة بين مصر المملوكية وإمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا موسى، لهذا كان بالمقابل عدد كبير من الفقهاء والتجار والقضاة المصريين قد انتقلوا إلى مالي[3].

ويمكن أن نذكر الشيخ العالم أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي درس في الأزهر وعاش في القاهرة أين كان ينشر علمه ومعارفه إلى غاية وفاته، لهذا وعرفانا له بمجهوداته في سبيل العلم والدين، قام المصريون ببناء فوق قبره قبة ومسجد سمي بمسجد التكروري، حيث قام المماليك البحرية بتجديده وتوسيعه عام 743للهجرة / 1342م.[4]

بالإضافة إلى الشيخ المصري الفقيه القاضي عبد الرحمان التميمي وهو جد القاضي حبيب والفقيه اند غمحمد الكبير، الذي جلبه الملك منسا موسى من الحجاز عند رجوعه من الحج وأسكنه مدينة تمبكتو، لكنه هذا العالم لما رأى عدد الفقهاء بتمبكتو ومستواهم العلمي الذي يفوق مستواه رحل إلى مدينة فاس وتعلم هناك وتفقه على يد علمائها ثم رجع إلى

---

(1) شوقي عطاء الله الجمل، الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م، ص 44 .

(2) نيان تمسير جبريل، مالي و التوسع الثاني للمانديينغ، المرجع السابق، ص 176.

(3) Yattara el Mouloud, L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du 8éme au 16éme siècle. In site : ***http://www.histoire-afrique.org/article164.html?artsuite=6 consulté*** le : 20-07-2011

(4) Ibid

تمبكتو.[1] كما زار موسى كاتب وهو الكاتب الشخصي لمنسا موسى مدينة فاس من أجل الدراسة وذلك بإيعاز وتشجيع من منسا موسى[2].

ومن الشخصيات التي اصطحبها منسا موسى معه عند عودته من الحج رفقة الفقيه عبد الرحمان التميمي رجل من عائلة الزعيم الموحدي عبد المؤمن بن علي الذي يدعى المعمر والذي كان له دور بارز في تعليم الملك الشرع الإسلامي من خلال الحظوة التي كان يتمتع بها، ويلازمه دون بقية وزرائه وكبار رجال قومه[3].

إن المجهودات التي قام بها منسا موسى في سبيل نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية أكسبته مكانة دينية رفيعة لدى شعبه، فلم يعد مجرد إمبراطور فقط، وإنما تحول في نظر الشعب المندي إلى ولي من أولياء الله الصالحين[4]. لذلك نقول بان ملوك مالي عموما ومنسا موسى بصفة خاصة لم يكتفو بانبهارهم بالثقافة العربية الإسلامية والتأثر بها انطلاقا من تعلقهم بالدين الإسلامي وكل ما يرتبط به من لغة وسلوك وثقافة، وإنما استطاعوا أن يدخلوا الإمبراطورية كلها في هذه الثورة الثقافية العربية الإسلامية، رغم بعض الخصائص السودانية التي بقيت تميزها.

ثانيا.المظاهر الحضارية لمملكة مالي :

1.في ميدان التعليم:

إن التعليم في مملكة مالي كان في البداية يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف[5]. لكن مع مجيء ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في

---

(1) السعدي(عبد الرحمان)،تاريخ السودان، طبعة هوداس، المكتبة الامريكية الشرقية، ميزونوف، باريس،1981، ص ص47 و51.

(2) Cuoq(Joseph) , Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest Op.it , p108.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 201.

(4) جوان جوزيف، المرجع السابق،ص72.

(5) Devey (Muriel) , La Guinée Op.Cit, p285.

المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية.

وكان أساس التعليم الذي ركز عليه ملوك مالي يقوم على تعليم القرآن، الذي يعد أساس التعليم، وتدور حوله مختلف المناهج من لغة وفقه وتفسير وأصول وتاريخ[1]. وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم ملوك مالي القرآن وبعض شرائع الإسلام، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك[2].

و يبدو أن مهمة هؤلاء المعلمين كانت تشمل تعليم ملوك مالي اللغة العربية، وهذا من خلال إجادة كل من منسا موسى وأخوه سليمان للغة العربية، رغم أنهما لم يكونا يتقنان حتى لغات ولهجات الشعوب التي يحكمونها، بحيث كانوا يتحدثون للوافدين عليهم من رعيتهم عن طريق ترجمان[3].

وقد تأثر التعليم في مالي بطبيعة التكوين الديني لهؤلاء المعلمين، حيث اقتصر على العلوم الدينية بالمدارس القرآنية التي تشبه الكتاتيب في بلدان المغرب العربي، والتي كانت تنتشر في المدن الكبرى كولاته، جني، تمبكتو، غاو، نياني وغيرها، والتي كانت تمثل صورة طبق الأصل لنظيراتها في مكة، الكوفة، القاهرة أو فاس[4]. فكانت تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها، كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية[5].

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة،

---

(1) Raymond(Mauny),Tableau géographique Op.Cit, p528.

(2) قداح نعيم، حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ص 160.

(3) أنظر ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 684.

(4) قداح نعيم، المرجع السابق، ص 160.

(5) باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 105 .

فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر[1]. كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة[2]. وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري[3].

وبالنسبة لمرحلة التعليم الثانوي فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي،كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة[4]. بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري[5]. كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق[6]. وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة[7].

بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين

---

(1) Cuoq (Joseph), Histoire de l'islamisation, Op.Cit. p91.

(2) انظر المصدر السابق، ص 691.

(3) **البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)**، فتح الشكور مصدر سابق،ص 88 . السعدي، المصدر السابق، ص 27 .

(5) **باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد ابراهيم)**، المسلمون في غرب إفريقيا ، مرجع سابق ، ص 105

(6) **قداح نعيم**،حضارة الإسلام وحضارة أوربا، مرجع سابق، ص 161 .

(6) **Cuoq (Joseph)** ,Histoire de l'islamisation. p126.

(7) **قداح نعيم**،المرجع السابق، ص 161.

وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن[1].

وكان التعليم الجامعي يتم في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرة كان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج[2]. وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها[3].

أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها [4].

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو أدركها حافلة بالفقهاء

---

(1) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105.

(2) معتز ياسين، جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في ***مجلة الوعي الإسلامي***، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 523.

(3) باري(محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم)، المرجع السابق، ص 105.

(4) معتز ياسين، المرجع السابق.

السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها.[1] كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى[2].

وعندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي[3]. وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة[4].

كما جذبت جامعة تمبكتو في عهد مملكة مالي بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ/1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ /1401م) صاحب كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة[5].وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا[6].

---

(1) البرتلي الولاتي، فتح الشكور، ص 176.

(2) السعدي: المصدر السابق، ص 57 ، . Yattara el Mouloud:Op.Cit

(3) **أحمد بابا التنبكتي**، نيل الابتهاج ، مصدر سابق، ص 608.

(4) المصدر السابق، ص 681 .

(5) معتز ياسين، المرجع السابق.

(6)معتز ياسين، المرجع السابق..

2. نشر اللغة العربية :

لقد كان القرن الثامن للهجرة عصر القوة، وكذا عصر التعريب لإمبراطورية مالي، وذلك بفضل المجهودات التي قام به منسا موسى من أجل نشر لغة القرآن في ربوع المملكة، والتي كانت تندرج ضمن مشروعه الثقافي الكبير الساعي إلى جعل إمبراطورية مالي ليس جزءا فقط من العالم العربي الإسلامي، وإنما عنصرا فعالا في حضارته. وكما اهتم بإرسال الطلبة إلى جامعات القاهرة وفاس، وحرص على جلب أمهات الكتب العربية إلى بلده، فإنه أسس عند عودته من الحج سنة 1325م/725هـ مدرسة في مدينة نياني لتعليم اللغة العربية والقرآن[1].

فكان هذا الملك يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، وكان يداوم على قراءة القرآن باللغة لعربية، فقد أخبر ابن أمير الحاجب أبا الفضل العمري بان منسا موسى كان يجيد التكلم باللسان العربي،[2] والأكيد أنه لما ذكر كلمة إجادة كان يعني بها الإتقان. وكانت مراسلات منسا موسى مع سلاطين المماليك بمصر بخط عربي تراعى فيه أصول وقوانين الأدب العربي، وكان يكتبها له خاصته من الماليين.[3]

أما في عهد منسا سليمان فقد تحولت اللغة العربية إلى لغة رسمية للإمبراطورية المالية إلى جانب اللغة المالنكية[4]. حيث انتشر في عهده الخط العربي وخاصة الخط المغربي الفاسي[5] الذي يكون قد جلبه معهم إلى مالي طلبة المشرق الذين درسوا في مصر، أو جلبه منسا سليمان نفسه عند عودته من الحج، كما انتشر أيضا الخط المغربي الذي انتقل إلى مالي عن طريق التجار المغاربة.[6] فمازالت المخطوطات التي احتفظت بها مدينة تنبكتو إلى اليوم والتي تعود إلى فترة القرن التاسع للهجرة، تشهد على انتشار هذا الخط .

ولقد ذكر السعدي قائمة طويلة للعلماء اللغة الذين كانوا مقيمين أو يدرسون في تمبكتو، منهم الشيخ يحي التدلسي، وأبو عبد الله أندغمحمد بن الفقيه النحوي بن أندغمحمد إمام

---

(1) قداح نعيم، حضارة الإسلام، المرجع السابق، ص 156.

(2) **المصدر السابق**، ص122.

(3) **العمري**، المصدر السابق،ص 125.

(4) **قداح نعيم**:المرجع السابق،ص156.

(5) **نفسه، ص 156. ـــــ .بوعزيز (يحي)**:تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية. دار هومة، الجزائر، 2001م،ص199

(1) **المصدر** السابق، ص 29.

مسجد سنكري، وهو شهير في علم اللغة العربية، ومنهم السيد أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الله بن أبي يعقوب، وهو عالم فقيه ولغوي نحوي متقن في علوم الأدب[1].

كما استخدم الماليون مهنة الوراقة، وهي مهنة نسخ وبيع الكتب وهي من المهن المرتبطة بالثقافة العربية، فأصبح الماليون يكتبون لغتهم المالنكية بالخط العربي.[2] بل عرفت لغة المالنكي وهي لغة عائلة كيتا وسكان النيجر الأعلى والتي أصبحت اللغة الرسمية لإمبراطورية مالي، دخول عدة كلمات عربية إلى قاموسها اللغوي، ونأخذ على سبيل المثال كلمة "حورايا "وهي الحرية، و"باراكا" وتعني البركة أو القوة، وكلمة "تنين"التي يقصد بها يوم الإثنين[3].

3. نشر المذهب المالكي:

وكانت أول هذه التأثيرات انتشار المذهب المالكي، الذي كان مذهب المغاربة بامتياز، وهنا يظهر لنا جليا التأثير المغربي بحكم الموقع الجغرافي وتأثير التجار المغاربة من الصنهاجيين في نظرائهم الماليين، بالإضافة إلى دور المرابطين في نشر المذهب السني المالكي. كما كان الأزهر وطلبته دور كبير في نشر هذا المذهب في إمبراطورية المندينغ، فقد كان الأزهر يقوم على المناداة بمذهب السنة، كما أن مدرسة ابن رشيق التي بناها الكانميون وكان يدرس فيها الطلبة الماليون كانت تدرس الشريعة وفق المذهب السني المالكي[4]. فلقد كان منسا موسى مالكيا متشددا، حيث حرص عند عودته من الحج على جلب معه الفقهاء والكتب على مذهب الإمام مالك[5].

ولما حج أخوه من بعده الملك منسا سليمان سنة 1351م /751 هـ، قرر استغلال فرصة تواجده بمصر لشراء عدد من الكتب لتدعيم مكتبات الإمبراطورية،وخاصة تلك الموجودة

---

(2)السعدي، لمصدر السابق،ص 208.

(3) Camara(Mamadou) , Parlons Malinké. Editions: L'harmattan, Paris, 1999, p20.

(4) شوقي عطاء الله الجمل، الأزهر و دوره السياسي مرجع سابق، ص12.

(4) القلقشندي، المصدر السابق،ص281.

(5) العمري، المصدر السابق، ص107.

بمدينة تمبكتو وذلك لتعويض ما خربه وحرقه الموسي خلال هجومهم عليها، فكانت الكتب التي جلبها تضم كتب المذهب المالكي[1]. وعند وصول منسا موسى إلى القاهرة خلال رحلته إلى الحج سنة 724هـ/1324م، أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار في طلبه، وطلب منه السجود وتقبيل الأرض رفض منسا موسى ذلك وقال للترجمان الذي كان يكلمه:((أنا مالكي المذهب، ولا اسجد لغير الله)) [2]. وبالتالي فقد أصبح المذهب السني المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ومعتنقيه يدعون "توري" بلغة المالنكي[3].

ورغم هذا الحرص الذي كان يبديه منسا موسى على التمسك بمذهب مالك ومحاولة إشهار ذلك خلال سفرياته إلى الخارج، إلا أن مملكة مالي لم تكن بمعزل عما كان يعرفه العالم الإسلامي وخاصة المغرب الإسلامي من اختلاف مذهبي، حيث يذكر لنا ابن بطوطة بأن الإمبراطورية المالية التي زارها في عهد منسا سليمان، كان يوجد بها المذهب الخارجي لكن يبدو أنه لم يكن بالأهمية البالغة، بحيث يكون قد اقتصر على قرية زاغزي التي يسكنها التجار السوننكي من الونغارا ومعهم جماعة من البيضان يتمذهبون بالمذهب الإباضي ويعرفون بصغنغو[4].

وعموما فإننا لم نصادف أي مصدر تكلم عن وجود المذهب الاباضي في مملكة مالي باستثناء ابن بطوطة، كما أنه يظهر من شهادة هذا الأخير أن هذا المذهب اقتصر وجوده على قرية صغيرة مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن سكان هذه القرية كانوا يشكلون بقايا تأثير الفقهاء الاباضية من التجار الذين كان لهم نشاط قوي خلال القرن الخامس للهجرة/11م، والذين كان لهم أثر بارز في اعتناق ملوك مالي الأوائل للإسلام. لكن نشاط أولائك الدعاة الاباضية كان خلال القرن الرابع والخامس للهجرة/10و11م، وهي فترة لم يكن الإسلام قد تغلغل في المجتمع المندي، وكان إسلاما سطحيا، بينما شهد القرن الثامن للهجرة وهو عصر منسا موسى وأخوه سليمان نهضة ثقافية وتفتح مالي على العالم الإسلامي، وخاصة المراكز العلمية المالكية السنية كالأزهر وفاس.

---

(1) Yattara el Mouloud , Op.Cit.

(2) **المقريزي**، الذهب المسبوك، ص142.

(3) **ابن بطوطة**: المصدر السابق،ص 680.

(4) **نفسه**، ص 680.

لهذا نقول بأن منسا موسى قد افلح في جعل المذهب السني المالكي، هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ونشير إلى أنه رغم تردد منسا موسى على مصر، والعلاقات التي كانت تربطه بعلمائها، وملوكها، إلا أنه لم يتأثر بالمذهب الشافعي الذي كان مذهب المماليك بمصر، وهو ما يُفَسَّر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية لمالي، ومدى تمسك ملوك مالي بالمذهب المالكي، بالإضافة إلى محاولة إظهار استقلالهم المذهبي عن مصر[1]، بينما لم تتكلم المصادر عن أي أثر للمذهب الشيعي في مملكة مالي.

4. حركة التأليف و القراءة في مملكة مالي:

شهدت مملكة مالي نشاطا تأليفيا واضحا، ساهم فيه للعلماء الذين عجت بهم جامعاتها في مختلف الميادين، و هناك أيضا تآليف أخرى لقيت رواجا في السوق العلمية المالية و انتشرت منها عقائد السنوسي التي لاقت قبولا واهتماما كبيرين من طرف الطبقات المتعلمة في مالي، حتى أصبحت تذكر في معظم المقدمات الكلامية لعلم الكلام، حيث كان الشيخ السنوسي يحظى بمكانة عظيمة لدى علماء تنبكتو و جني، وكان يعد مؤسس المدرسة الأشعرية التي اشتهرت بالاجتهاد في تلمسان، لهذا عكف علماء وطلاب مالي على دراسة مصنفات السنوسي فنالت اهتمامهم و حازت على إقبال كبير عندهم، فكانت كتبه تعتمد في الحلقات العلمية في جامعات جنجربير و سنكاريه، فحفظوها و فهموها و نسخوها، و لعل أكثر كتبه انتشارا عندهم هي العقيدة الصغرى المساة بـ "**أم البراهين**" التي زودوها بشروح ومختصرات وتعليقات، كان أشهر من درّسها في تنبكتو الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري المعروف باسم بغيغ، و أخذها عنه تلميذه أحمد بابا حيث قال في ذلك : « **وختمت عليه...صغرى السنوسي** »، **وقرا عليه "الكبرى" وشرحها في قوله: « وحضرت عليه الكبرى وشرحها**»[2]، ومن العلماء الذين وضعوا عليها شرحا نجد أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت تحت عنوان "شرح السنوسية الصغرى"، و أحمد بابا التنبكتي بعنوان « شرح الصغرى للسنوسي» [3].

---

(1) الشكري (أحمد)، الإسلام و المجتكمع السوداني(امبراطورية مالي) 1230.1430، المجمع القافي، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 1999م، ص 229.

(2) **أحمد بابا التنبكتي**، كفاية المحتاج ،مصدر سابق، ص282

(3) نفسه، ص602.

كما انتشرت في تنبكتو مصنف محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني في علم المنطق و خاصة مصنفه المسمى: «منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب» ،الذي كان يدرس للطلبة الماليين في حلقات التدريس بتنبكتو ، و التي عرفت عند علماء تنبكتو بمنظومة المغيلي في المنطق[1]، و عرفت أيضا باسم رجز المغلي في المنطق[2]، حيث كان يدرسها الفقيه محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري ودرسها أحمد بابا التنبكتي على يد شيخه حيث يقول: «وقرأت عليه رجز المغلي في المنطق» [3]

كما ترك كتابا غاية في الاهمية و هو كتاب ما يجب على الملوك و السلاطين والذي يعد مرجعية سياسية لملوك السودان كان قد قدمه لسلطان كانو محمد رمفة، و تضم ثمان ابواب وهي مجموعة من التوصيات و المبادئ التي لابد ان يتبعها اي حاكم يحكم بالشريعة الاسلامية4، حيث كتبه بطلب من سلطان مملكة كانو في بلاد الهوسا الذي زاره المغيلي و قربه اليه عين كمستشار خاص للملك، و طلب منه السلطان محمد رمفا مجموعة من النصائح التي تجيز للحاكم ردع الناس عن الحرام، فكتب اليه رسالة تضم مجموعة من النصائح التي تضم تنظيم شؤون الامارة و الحكم[5]. و لقد انتشرت هذه الوصايا و هذه الرسالة في كامل بلاد الساحل و و غرب افريقيا لدى الحركات الاسلامية التي ظهرت خلال العصر الحديث و اتخذها زعماء هذه الحركات دستورا لهم.

كما لقي كتاب ابي العباس يحي الونشريسي التلمساني (المتوفى سنة 914هـ /1508 م) المعروف بـ «المعيار المعربوالجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب» رواجا في منطقة الساحل و بالخصوص تنبكتو، حيث قام احمد بابا التنبكتي بترتيبه حسب المواضيع و الابواب[6].

---

(1) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، مصدر سابق، ص142.

(2)نفسه، ص606.

(3) نفسه، 602.

(4)انظر: **محمد بن عبد الكريم المغيلي**، تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الاولى،دار ابن حزم للنشر و التوزيع، بيروت ، 1994م.

(5) مبروك مقدم، مرجع سابق، ص37.

(6) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص 602.

و يذكر عبد الرحمان السعدي ان مدينة جني و هي احدى مدن مالي المشهورة، خلال القرن السادس للهجرة كانت تضم 4200عالم[1]، و رغم ان هذا العدد مبالغ فيه لكننا نرجح انه هذا العدد المقصود به حملة القران و الراتبون و القراء، و هو عدد لا يستهان به ويعبر عن ارتفاع عدد المتعلمين في مدن مالي خلال هذه الفترة.

5. دور مالي في العمران الإسلامي :

استطاع ملوك مالي ترك بصماتهم الفنية في المجال العمراني، حيث تميزت عن غيرها من الممالك الإسلامية في إفريقيا في ىذا المجال، فتمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، و هو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي المغربي و يحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كاف بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، كذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبتنى بالطوب، ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة ، كما توجد بالقرب من البيت زريبة لتَّربية الماشية [(2)] .فكانت العاصمة نياني في عهد سوندياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين، وكانت سقفها مصنوعة من القصب .وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار كحشائش النباتات، أما في مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان و هو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن [(3)] .

لكن بوصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324 ، تعرف على مهندس وشاعر أندلسي هو أبا إسحاق الساحلي المدعو بالطويجن ، فاصطحبه معه إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني [(4)] .ككاف مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى

---

(1) تاريخ السودان، مصدر سابق، ص 11.

(2) عبد القادر زبادية، الحضارة العربية ك التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989 ، ص5 .

(3) Raymond Mauny, Les siècles obscurs Op.Cit, p160.

(4) أبو العباس الناصري السلاوي ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق :جعفر و محمد الناصري ،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1954 ، ج2 ، ص ص75 .

المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، و هو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس [1] وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهاشه لوضعية مسجدها المتَّدنية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفتَّرة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش، حيث ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت في ذلك الوقت مبنية كل سقوفها بالأخشاب كالقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمل(2) ، لذلك نبه منسا موسى إلى هذه البناية التي لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، و لا ترقى إلى مقام الإمبراطور أيضا، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات و مساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة و لا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى(باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش[3].

لقد طلب هذا الأمير الموحدي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق، فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.[4]

وبهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس.فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة مع بعضها البعض عن طريق سور للدعم،

---

(1) عبد الرحمان ابن خلدون ، كتاب العبر .مصدر سابق، ج6 ، ص267

(2) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، المصدر السابق، ص 111.

(3)قداح نعيم: المرجع السابق، ص112 .

(4)**Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard)**, Les NègresOp.Cit, pp 22 et23 _; **Delafosse(Maurice)**, Haut sénégal-Niger. Emile Larose, librairie Editeur, Paris, 1912, tome2, p189.

وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.[1]

ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.[2]

إن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذكانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،[3] ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان،و بالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.[4] فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضله

---

(1) **Ogunsolo(John Igué)** , Les villes précoloniales Op.Cit, p36.

(2)ابن خلدون، المصدر السابق، ج6 ،ص 268 ــ **السلاوي**، المصدر السابق،152 .

(3)بن قربة(صالح)، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100.

(4)السعدي: المصدر السابق،ص ص 20 ،21.

أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،[1]فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهتي اليمين.[2]

وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.[3] وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر(أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر بمدينة بتمبكتو.[4] حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي.[5]وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل ولم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها[6]، مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحداثته بالنسبة للسودان الغربي، وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه،حيث أنشأ خلال سفره إلى الحجاز مسجدا

---

(1) **Cornevin(Robert et Mariane)**, Histoire de l'Afrique, Op.Cit, p164.

(2)السعدي، المصدر السابق، ص 87.

(3) يذكر **عبد الرحمان السعدي** بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّر الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. (تاريخ السودان، ص 56).

(4) Cornevin(Robert et Mariane), Op.Cit, p164.

يذكر الضابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16 م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الابعاد ولا ترق إلى مستوى حتى تلك القبور والأضرحة... =التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جني. القديم. ,(**Dubois (Felix**

Timbuctoo the mysterious. Op.Cit, p275.

(5)Ogunsolo(John Igué) ,OpCit, p41.

(6)Dubois (Felix) ,Op Cit,p275.

في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري، كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو.[1]

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سونديانا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو(Banco) باحترافية كبيرة،[2]، كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي[3] الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي، فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة، أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المنزل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سُلَّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحا صغيرا محاط بحاجز مرتفع قليلا، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق سلم من عشر درجات[4]. بالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجا حقيقيا للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية[5].

---

(1)Mahmoud kati ,OpCit, p56.

(2)Niane djibril temsir , Le soudan occidental,p134.

(3) يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

(4) Niane djibril temsir : Le soudan occidental, p130.

(5)قداح نعيم، المرجع السابق، ص147.

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضا زاخرا بالانجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.[1]مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،[2] وجعل بناياتها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.[3]

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس ومورواليس،[4] قد أفرزت طرازا معماريا يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازا سودانيا خالصا وإنما يستمد خصائصه من الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.[5]

ثالثا. دورها في التنمية الاجتماعية و اقتصادية .

لقد ساهمت مملكة مالي أيضا في التنمية الاجتماعية و الاقتصادية، من خلال التنظيم الاجتماعي و الاقتصادي الذي ادى إلى تنمية الفرد و المجتمع المالي من حيث ظروف الحياة او من خلال نمط العيش و الرفاهية، بالإضافة إلى تطور الإنتاج.

---

(1)**المصدر السابق**، ص 690.

(2)البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـ 23كيلومترا

Mauny (Raymond), les siècles obscurs Op.Cit. p160.

(3) قداح نعيم:المرجع السابق، ص 150.

(4) **Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard)** , Les Nègres, Op.Cit. p23.

(5) **Trimingham (Spencer)** , The history of Islam in west Africa. Oxford university - press, London, 1963, p69.

1. التنظيم الاقتصادي:

وضع سونديانا كيتا نظاما و مشروعا حضاريا متكاملا لمملكة مالي، حيث ساهم الجانب الاقتصادي منه في تنظيم الحياة الاقتصادية ونجاعتها مما انعكس على الفرد المالي بالفائدة ، حيث عمد إلى توظيف ثروات كل منطقة من مناطق الإمبراطورية في الرفاهية الاقتصادية للدولة، واستغلالها بطريقة عقلانية وبراغماتية. فالغرب خصص لإنتاج المواد الغذائية والزراعية، والوسط خصص لإنتاج الحديد، بينما كان الشمال يزود الإمبراطورية بالملح، ويبقى الجنوب وغاباته مصدرا لجلب البطاطا، ونواة الكولا، ومختلف الدرنيات[1].

ولقد كانت إمبراطورية مالي تعاني كثيرا من نقص الملح، وكانت هذه المادة تتواجد في منطقة الساحل بالشمال أين تسيطر على مناجمه القبائل البربرية. كما انه بعدما ألغى سونديانا تجارة الرقيق، فإنه لم يعد ممكنا مقايضة هذه المادة بالعبيد، لذلك كان عليه أن يستغل ثروات البلاد والبحث عن مصادر أخرى للتجارة بها ومقايضتها بالملح عوض العبيد. ولما كانت أرض مالي غنية بالذهب، فقد دعا سونديانا في خطابه الذي ألقاه عند الإعلان عن ميلاد الإمبراطورية إلى ضرورة البحث عن مناجم الذهب واستخراجه من أرض مندن التي تزخر به[2].

أما بالنسبة لمعدن الحديد، فقد أوكل مهمة استخراجه وصناعته إلى الأسرى الصوصو المعتقلين خلال حرب كيرينا، حيث أمر سونديانا بتسخيرهم للخدمة في الأفران الكبرى للحدادة والتعدين التي تعد مهنتهم الأصلية، وذلك تكفيرا عما قاموا به ضد مالي، لكنه حرص على أن يعاملوا معاملة طيبة للملتزمين بعملهم[3].

وقد ركز سونديانا كثيرا على تنشيط التجارة التي اعتبرها الشريان الحيوي للأمة من خلال تنشيط تجارة الذهب[4] وتنظيم التجارة النهرية، لكنه وجه اهتماما خاصا للنشاط الزراعي،

---

(2) **Rosa Amelia plumelle - Vribe** , Traite des blancs traite des noirs : Aspects méconnus et conséquences actuelles. Editions l'harmattan,, paris, 2008, p50.

(2)**Youssouf tata cissé et Wa kamissoko**, La grande geste, tome 2,p28

(3)Ibid,p28

(4) **Al hassane chérif** , L'importance de la parole chez les Mandingues de Guinée. Etudes Africaines, Collection dirigé par Denis pryer. Edité par l'harmattan, paris, 2005, p29.

حيث أدخل إلى مالي زراعة القطن والفستق وشجرة البابايا أو المانغو[1].كما عرفت الإمبراطورية إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا[2]. هذا وقد اهتم سونديانا كثيرا بتطوير أساليب تربية المواشي والرعي[3].

و هكذا فقد عمل سونديانا طوال فترة حكمه التي دامت 25 سنة حسب ابن خلدون[4]، وواحد وعشرون سنة (حسب دولافوس)[5]على تأسيس إمبراطورية واسعة، وتدعيم أركانها، وتعزيز الوحدة الوطنية، و حماية ترابها وشعبها. كما حرص على إسماع صوت مالي الجهات الأربعة من العالم كما جاء في خطابه الشهير الذي ألقاه بعد تنصيبه منسا لكل مندن[6]، وكان له الفضل في ارتقاء عائلة كيتا عندما حصر الحكم في مالي على ذريته من آل كيتا. وبهذا يكون قد حجز لهذه العائلة مكانة في تاريخ مملكة مالي الإسلامية، وسمح لأبنائها بصناعة مجد لم يكن حكرا على مملكتهم، وإنما بقي ذخرا لكل الأفارقة السود فيما وراء الصحراء، ذلك أن هذه العائلة ورغم رحيل زعيمها الأكبر سونديانا، إلا أنها خلفاءه من بعده استمروا في توطيد أركان الدولة وتوسيع حدودها،وإرساء دعائمها إلى أن بلغت أوجها، إلى غاية بداية القرن الثامن للهجرة/14م.

اما في عهد ملوك مالي الذين خلفوا سونديانا فقد اسيتغلوا موقع مملكتهم في منطقة النيجر الأعلى الغنية بشبكتها الهيدروغرافية، وتربتها التي تتشكل من مزيج من الحجر الرملي وأكسيد الحديد والغضار وحجر الصوان، مما يمثل عامل مهم في الحفاظ على البقايا النباتية والحيوانية والدبال، ويسمح بزراعة الذرة، البطاطس، الدّخن، الفاصوليا والأرز، كما أن

---

(1)Tidiane N'diaye, Op.Cit, p32.

(2) Rosa amelia plumelle – Vribe , Op.Cit, p51

(3)Tidiane N'diaye , Op.Cit, p32

(4).العبر، مج6،ص267

(5) يحددها دولافوس بواحد و عشرين سنة على اعتبار أن بداية حكمه حسبه كانت في عام 1234م/631هـ، أي عندما استدعاه نبلاء مندن لقيادتهم في الحرب ضد مملكةالصوصو . بينما توفي حسبه سنة1255م/652هـ

(Haut Sénégal-Niger, t2, p28)

(6) Colomb , Les populations du haut Niger,p2.

مناخها اللطيف وأمطارها التي تسقط خلال ستة أشهر من السنة(من شهر ماي إلى شهر أكتوبر)،[1] كلها عوامل هيأت المملكة لتكون بلدا زراعيا، لكن تحكم جماعة كيتا الصيادين في زمام الأمر بكنغابا منذ وقت مبكر جعل المملكة تشتهر بحرفة الصيد كنشاط إقتصادي أول. لكن إدراك سونديانا كيتا فيما بعد أهمية الزراعة بالنسبة لأمته المندية، جعله يعمل على إدخال محاصيل زراعية أخرى، فقد أدخل إلى مالي زراعة القطن والفستق وشجرة البابايا أو المانغو،[2] كما عرفت الإمبراطورية بفضله إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا.

وبذلك بدأت المملكة تهتم بالزراعة، فوضع دستور مندي الشهير بكوروكان فوكا قوانين صارمة خاصة بتنظيم العمل الزراعي، ومحاربة ظاهرة هروب العمال من الحقول، واتُّخذت إجراءات خاصة بمكافحة شرود الدواب خلال موسم الزرع والحرث، حيث يمسكون بها ويعيدونها إلى رئيس القبيلة.[3] وقد طبقت هذه القوانين بصرامة في عهد سونديانا، وفي عهد خلفائه الأوائل من بعده، بل تحولت مع مرور الوقت إلى تقاليد ثابتة لا تتغير مع تغير الأنظمة والحكومات.

ورغم أن المصادر الخاصة بتاريخ مالي لم تترك لنا تفاصيل دقيقة حول النشاط الزراعي وتقنياته، وطبيعة ملكية الأراضي والسياسات الزراعية المطبقة، إلا أننا نستطيع أن نفهم من كلام العمري عند قوله ((ولأمراء هذا الملك وجنده إقطاعات وإنعامات) [4] بأنه كان للأمراء والجنود أراض خاصة بهم. كما نجد في نفس المصدر بأن الملك منسا موسى قد وضع قوانين صارمة في مراقبة وحماية الإنتاج الزراعي من السرقة، حيث كان الماليون يزرعون شيئا يشبه البطاطا يعرف عندهم باسم القافي الذي كان يزرع في الخلاء، ولكن إن أُبلغ الملك بأن أي أحد قد سرق منه شيئا عاقبه بقطع رأسه وتعليقه في المكان الذي قطع فيه حتى يكون عبرة لغيره،

(**1**) Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

أنظر أيضا: **الشارف محمد**، إمبراطورية مالي. مقال نشر في الموقع الالكتروني: ***http://www.islamichistory.net.*** ***اطلع*** عليه في جويلية 2006.

(2) Rosa amelia plumelle Vribe, traite des blancs traite des noirs, p51

(3) **CELHTO** , La charte de Kurukan fuga. Publié par : L'harmattan, Paris, 2008 ,p20

(4) المصدر السابق، ص 116 .

ولا تنفع مع هذا الفعل أية شفاعة لدى الملك.[1] وبالتالي فإننا نستنتج من كلام العمري شيئين مهمين هما:

الأول هو أن الملك كان يراقب النشاط الزراعي عن قرب، بل ويبدي صرامة كبيرة في دعم الفلاحين وحماية إنتاجهم.

أما **الأمر الثاني** فهو أن حرص الملك على معاقبة سارقي منتوج القافي، وحرص الموظفين على إطلاعه بأمر السرقة رغم أنه يبدو تافها أمام أمور الإمبراطورية التي تشغله،و هو ما يقودنا إلى الاعتقاد بأن تلك الأراضي التي كان يزرع فيها هذا المحصول، والتي قال عنها العمري بأنها أراضي موجودة في الخلاء يمكن أن تكون أراض خاصة بالملك وحاشيته، أي أراضي إقطاعية.

وبهذا يمكن أن نقول بأن تدخل الملك في النشاط الزراعي قد ارتبط بأهمية الزراعة في توفير الأمن الغذائي للدولة وفي تموين جيشها العظيم، إلى درجة أصبح فيها الملك ينتظر موسم جني المحاصيل لتقييم مدي خضوع الفلاحين لسلطته وقياس مدى ولائهم له. حيث كان يتعين على الفلاحين خلال حلول موسم جني المحاصيل تقديم فروض الطاعة والولاء، وإظهار درجة وفائهم للملك من خلال تقديم باكورة الإنتاج إليه، وأن عدم الالتزام بذلك يفَسَّر على أنه خروج عن المنسا وعصيان له.[2]

ومجمل القول فإن مملكة مالي كانت تنتج عددا متنوعا من المحاصيل وخاصة الحبوب التي يتقدمها الأرز ونبات آخر يعرف بالفوني،[3] وكان الأرز يزرع في أودية نهري النيجر والسنكراني، بالإضافة إلى مناطق السنغال وغمبيا، كما كان يزرع الدخن أو الذرة في التربة الجافة في السهول.[4] أما الشعير فهم منعدم لديهم ولا ينبت أبدا. ويزرع الماليون أنواعا عديدة من الخضر كالفاصوليا والقرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان والكرنب والملوخية، أما الفواكه فهي متوفرة بأنواع شتى، فمنها الجميز وأشجار غير معروفة إلا عندهم مثل شجر يسمى نادموت، وآخر يسمى زبيزور تشبه ثماره ثمار الخروب، وشجر يسمى شومي ثماره شبيهة

---

(1) العمري، المسالك، ج4، صٍ 111.

(2) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص175 . نشير إلى أنه في القديم كان المندي يقدمون جزء من باكورة إنتاج البطاطا لرئيس القبيلة كمظهر من مظاهر الاحترام .

(3) العمري، المصدر السابق، ص 111 .

(4) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص 175 .

بالسفرجل، وطعمه قريب من طعم الموز، وشجر اسمه فاريتي وهو شبيه بالليمون وطعمه شبيه بطعم الكمثري.[1]

أما فيما يخص تربية المواشي والأغنام فإنها كانت مزدهرة أيضا في مالي، وكان كل شعب يهتم بنشاط حيواني معين ويختص فيه، بحيث كان شعوب السهول كالفلاته ينفردون بتربية الماشية، وخلال القرن الرابع عشر للميلاد/الثامن للهجرة، أصبح معظم الريفيون في نهر النيجر يمارسون تربية البقر والأغنام والماعز،[2] لكن يظهر بأن عملية الرعي لم تكن منظمة ولم تكن تتم في مراعي معينة، وإنما كانت ترعى على القمامات والمزابل. ورغم ذلك فإن إنتاجها كان وفيرا بحيث كانت تلد الواحدة منها في بطن واحد سبعة وثمانية صغار.[3] كما كان الصيد تمارسه جماعات عريقة مثل السومونو في أعالي النيجر، والبوزو في حوض النيجر الأوسط والسوركو في بلاد سنغاي.[4] وقد لخص ابن بطوطة هذه الرفاهية الغذائية وحالة الرخاء من لأمن الغذائي التي حققها أحفاد سونديانا، في قوله بأن المسافر في بلاد مالي لا يحمل زادا ولا غذاء، وكلما وصل إلى قرية استقبلته النساء السودانيات باللّبن والدجاج ودقيق الأرز والفوني ودقيق اللُّوبياء فيشتري ما أحب منه.[5]

2.في الميدان التجاري:

يقول المؤرخ الإنجليزي جون فيج بأن إمبراطورية مالي قامت من خلال الزعيم سونديانا وأسلافه من آل كيتا بنفس الدور التجاري الذي قامت به إمبراطورية غانة، ألا وهو السيطرة على التجارة الرئيسية في كل السودان الغربي، إلى درجة انه أصبح فيها المؤرخون يخلطون بين الإمبراطوريتين.[6]

إن هذا الكلام لا يجب أن يُفهم على أن مالي لم تقم سوى بوراثة دور سالفتها غانة في السيطرة على المراكز التجارية الهامة بين الشمال وبلاد السودان وكذا مناجمها المعدنية

---

(1) نفسه،ص 113.

(2) نفسه، ص 175.

(3) العمري، المصدر السابق،ص 113.

(4) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص 175.

(5) المصدر السابق، ص 680.

(6) تاريخ غرب إفريقيا، ص 53.

الثمينة، ذلك أن ملوك مالي بدء بسونديانا ومرورا بخلفائه من بعده، حوَّلوا المكاسب المادية لهذه التجارة إلى تدعيم قوتهم العسكرية وفرض الأمن لأكبر مساحة للتجار، مما مكّنهم من توسيع سيطرتهم التجارية التي جعلت من مملكتهم إمبراطورية عسكرية وسياسية وتجارية أيضا،كما ساهمت القوة العسكرية المالية في فرض سيطرتهم على مناجم الذهب في بوري والذي يعد أهم سلعة في التجارة بين جنوب وشمال الصحراء.[1]كما عملت توسعات منسا موسى العسكرية خلال القرن الرابع عشر للميلاد/الثامن للهجرة، على تقريب المملكة من المراكز التجارية في الشمال كولاته ومن مناجم النحاس في تاكده.[2]وكذا سيطرتهم على المحطات التجارية الهامة لقوافل الطوارق كتوات وتمنطيت.[3]

ومن العوامل التي ساعدت خلفاء سونديانا على السيطرة على تجارة السودان الغربي هو معدن الذهب الذي كان في وقت سابق يموّل الأسواق في كل إمبراطورية غانة خلال القرنين الرابع والسادس الهجريين/10و12الميلادي، والذي بقي يشكل أهم مصدر للدخل بالنسبة لأسواق إمبراطورية مالي خلال القرنين السابع والتاسع الهجريين/ 13و15م.

لكن الشيء الذي تغير في عهد قوة خلفاء سونديانا، هو أن إمبراطوريتهم كانت تسيطر على مساحات أوسع من تلك التي كانت بحوزة إمبراطورية غانة، وبالتالي كانت لديها مصادر أكثر، فمع بداية القرن الثامن للهجرة/14م بدأت مالي تتوسع في الدلتا الداخلية للنيجر في منطقة جاو وفي إمارات سنغاي الشرقية، مما أضاف دفعا قويا ومصدرا جديدا لتجارة العبيد وزيادة في مداخيل الضرائب الناجمة عن مراقبة تجارة القوافل.[4]كما استفاد أحفاد سونديانا ومملكتهم من تحوّل الطريق التجاري الصحراوي من الغرب (وهو الرابط بين ولاته ومراكش مرورا بسجلماسة) إلى الشرق (وهو الرابط بين تمبكتو وزويلة أو بين تمبكتو والبنهاسا بمصر مرورا بتادمكة ووركلان)، وذلك بسبب اندلاع الثورة الموحدية بالمغرب الأقصى والتي انتهت

---

(1) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص 176.

(2) جون فيج، المرجع السابق، ص 55.

(3) أنظر ابن خلدون: العبر، مج7، ص 118.

(4) Conrad(David) , Empire of Medival west Africa :Ghana , Mali,and Songhay.Infobase publishing,New York,2005,p40.-.-; **Tidiane N'diaye,** La longue marche des peuples noirs. Edits : Publibook, Paris, 2007 , pp31, 32.

بسقوط الدولة المرابطية،[1] وقد ساعد على هذا التحول شرقا في التجارة الصحراوية عندما أصبح إنتاج الذهب يتم من الجهة الشرقية لحوض النيجر الأعلى، بالإضافة إلى كثرة حوادث قطع الطريق بين ولاته وسجلماسة، ومنه برزت أهمية مالي والتجار الماليين الذين أصبحوا ينافسون التجار المغاربة.[2]

إذن فالقوة العسكرية لمالي لم تكن العامل الوحيد في سيطرتها التجارية، ذلك أن سيطرة مالي على التجارة ضمن مجالات واسعة جدا لمدة تزيد عن القرنين[3] ساهم فيها العنصر البشري بشكل ملحوظ جدا، فالتجارة السودانية بشكل عام كانت تسيطر عليها ثلاث جماعات عرقية هي المندي، الهوسا واليوروبا، وكان المندي الذين يتشكل منهم أغلبية الشعب المالي يتفرعون بدورهم إلى ثلاثة فروع هي الديولا، الونغارا والداندي. وكان الديولا وهم المالنكي التجار يمارسون التجارة على مستوى منطقة فولتا العليا وساحل العاج الحاليين، أين كانوا يراقبون تجارة الكولا والذهب الذي يستبدلونه مع الملح في مناطق بوندوكو، بونا و كونغ.[4] ولعل الشيء الذي يميز الديولا عن غيرهم من المالنكي هو أنهم لم يسكنوا إلا المدن، بعيدا عن الأهالي المزارعين الوثنيين،[5] وربما هو الشيء الذي سمح لهم بتشكيل مجتمع ديني وتجاري، وجعلهم أكثر تفتحا على التجار المسلمين القادمين من شمال الصحراء فاحتكوا بهم، وسيطروا بذلك على المركز التجارية الشمالية.

لهذا كان الديولا يمثلون أكبر لوبي تجاري خلال فترة ازدهار مملكة مالي، فسيطروا على نشاط تجاري يمتد من الغابات التي كان يسكنها الوثنيون، وجلبوا إلى الشمال الذهب من منطقة بوري، بامبوك و بوندوكو، بالإضافة إلى مناجم بلاد الاشنتي. حيث كان تجار ديولا وحدهم الذين يمتازون بثقة سكان الغابات، ولا يسمحون لغيرهم بالاقتراب من مناجم

---

(1) انظر ابن عذارى، البيان المغرب. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني،محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة. دار الغرب الإسلامي، بيروت،1406هـ/1985م، الجزء الرابع (قسم الموحدين)، ص16 وما يليها.

(2) عز الدين عمر موسى، دراسات إسلامية غرب افريقية.دار الغرب الإسلامي،طبعة ثانية، 1424هـ /2003م، ص ص 64،65.

(3) وتمتد هذه الفترة من انتصار معركة كيرينا عام 1235م إلى بداية التواجد البرتغالي في المنطقة مع نهاية القرن الخامس عشر للميلاد.

(4) Igue(John) , Le territoire et l'état en Afrique. Les dimensions spatiales du développement. Editions Karthala, Paris, 1995, p158.

(5) Delafosse(M), Haut Sénégal-Niger, tome1, p280.

الذهب، كما كانوا يجلبون نبات الكولا، بينما كانوا يحملون من الشمال إلى الجنوب قطع النسيج والمصنوعات الزجاجية والجلود المدبوغة وألواح الملح التي كانت تجلب من الملاحات الصحراوية كأوليل أو(ترارزة)، وإيجيل وتغازة.[1] أما الونغارا فكانوا يتمركزون في بلاد الأشانتي حول منطقة كينتامبو (Kintampo) و أتيبوبو (Atebubu)، وذلك من أجل مراقبة تجارة الكولا والذهب.[2]

ومع حلول القرن الثامن للهجرة/14من تمكن الونغارا من الوصول إلى أسواق ومملحات الصحراء وهو نشاط يدل على تطور المبادرة التجارية لهؤلاء الونغارا، وقدرتهم على منافسة تجار الصحراء القادمين من بلاد المغرب ومصر، فعمل وصول التجار الماليين إلى مملحة تاغزة على تخليص إمبراطوريتهم من الضغط الذي كان يمارسه عليها بربر مسوفة باحتكارهم لتجارة الملح.[3] بينما كان الدندي يتمركزون في الشرق أين أسسوا مدينة كاندي، وجوكو في البنين الحالية، وكانوا يهتمون بتنظيم الأسواق ويوفرون مؤسسات لاستقبال للقوافل التجارية.[4]

كما لعبت بعض المدن التجارية دورا مهما في هذه السيطرة التجارية لمالي، فكانت مدينة ولاته أولى هذه المراكز التي أسسها السوننكي المسلمون المعروفون بالونغارا، والجداليون مع بداية القرن السابع للهجرة هروبا من بطش الصوصو عندما قاموا بغزو عاصمة غانة كومبي صالح.[5] فكانت تمثل أول عمالات السودان للتجار المغاربة القادمين من الشمال، فهي لا تبعد عن سجلماسة إلا بمسيرة شهرين فقط.[6]ولعل وقوعها على الحدود بين منطقة السافانا والصحراء الكبرى، ووقوعها في مفترق الطرق الذي يعبره تجار السودان والذاهبون إلى الحج منهم، هو الذي مكّنها من استقطاب اهتمام التجار وجعل منها المحطة النهائية لعابري

---

(1) Sory (Kamara) , Génie de parole, Essai sur la condition et le rôle Des griots dans la société Malinké. Editions Karthala, Paris, 1992, p22.

ونشير إلى أن ملح أوليل كان يحمل إلى غلام أولا، ومنها يحول إلى قلب مالي مرورا بمناطق كيتا ونياغاسولا، أما ملح إيجيل فيمر عبر ودانثم يحمل عبر طريق(تيشيت .ولاته .تمبكتو) قبل أن يصل إلى منطقة الغابات، بينما ملح تاغزة فكان يمر غبر تمبكتو ومنها إلى جني ثم إلى مالي. (Sory (Kamara), Op.Cit,p22).

(2) Igue(John), Op.Cit. p158.

(3) الشكري (أحمد)، المرجع السابق، ص 193 .

(4) Igue(John), Op.Cit, p158.

(5) E.W.Bovil and Robin Hallet , Op.Cit, p89 .; **Cuoq (Joseph)** , Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest, des origines à la fin du16ème siècle. Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris, 1984, p91 .

(6) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص676.

الصحراء باتجاه السودان الغربي، فعوضت بذلك الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة.[1] وعندما زارها ابن بطوطة خلال القرن الثامن للهجرة في عهد منسا سليمان كانت تابعة لإمبراطورية هذا الأخير، وكانت تتوفر على فنادق، ووجد بها مسؤول يتكفل بضيافة التجار والإشراف على شؤونهم يدعى منشاجو.[2] وبقيت تعلب هذا الدور كمحطة تجارية إلى غاية القضاء عليها من طرف الطوارق سنة 838هجرية /1433م، والذين أهملوها وفضلوا تطوير تمبكتو على حسابها.[3]

وتعد جني أكبر مدينة تجارية في مالي، فهي تعد مدينة وإمارة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا[4]. ولقد أصبحت منذ بداية عهد خلفاء سونڊياتا الأوائل أي خلال القرن السابع للهجرة /13م مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقى الطرق التجارية، بالإضافة إلى إحاطة المياه بها مما جعلها في مأمن من الغارات الأجنبية.[5] فبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح.[6] فكان يلتقي فيها أرباب الملح القادمون من تغازة ، وأرباب الذهب القادمون من أودغست، فاستقطبت إليها التجار مكان كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طوال أيام الأسبوع.[7] وكانت تستعمل فيها حتى القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تمبكتو إلى جني، فلقد كانت القوارب في جني كبيرة وقوية يقدر طول الواحد منها بعشرين مترا، وعرضها ثلاثة أمتار، بينما يقدر عمقها بمتر ونصف، وكانت قادرة على حمل كميات كبيرة من السلع كالزبدة، الأرز، القماش، السمك، الدخن، وأكثر من خمسين عبدا. وكان طاقم القارب يتكون من 16 أو 18 بحارا معظمهم من قبيلة البوزو المشهورين بنشاطهم النهري.[8]

---

(1) شعباني (نور الدين)، المرجع السابق، ص 116.

(2) المصدر السابق، ص676.

(3) Cuoq (Joseph), Op.Cit. p91.

(4) حسن الوزان، المصدر السابق، ص162.

(5) الشيخ أمين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى نهاية القرن اللسادس عشر. ضمن كتاب ***تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19 م***، الصادر عن المعهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص 84.

(6) حسن الوزان، المصدر السابق، ص163.

(7) السعدي، المصدر السابق، ص 12 .

(8) Niane temsir djibril , Le soudan occidental au temps des grands empiresOp.Cit ,202.

أما تمبكتو فلم تتحول إلى مركز تجاري مهم إلا بعدما بدأت ولاته تفقد مكانتها، فاستولت تمبكتو على تجارة ولاته وحتى ثقافتها.[1] ورغم الطبيعة الصحراوية والأرض القاحلة لتمبكتو، إلا أنها استفادت من التنوع الكبير للأجناس الذين سكنوها، وتنوع تركيبتها الديموغرافية من طوارق إلى بربر وسوننكي وسنغاي وعرب ومالنكي و فلاته.[2]

وتعد تمبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز التجارية الأخرى، إذ يعود بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/11م على يد قبائل بني مقشرن الطوارق.[3] إلا أنها تحولت إلى مدينة تجارية كبرى بفضل منسا موسى وأخوه سليمان اللذان عمراها ووفرا لها الحماية، وجعلا فيها الدكاكين والصناعات، وجلبا إليها البنائين، وازدهرت بها التجارة والعلم.[4] كما أن سمعتها كمخزن للتبر والذهب أصبحت تجلب التجار من كل نواحي دراع والسوس وسجلماسة وفاس، بالإضافة إلى تجار توات وغدامس وفزان وأجيلا في الصحراء.[5]

وقد عرفت مدينة كوكيا نشاطا تجاريا كبيرا، وخاصة خلال فترة حكم منسا أولي، وإلى غاية فترة حكم منسا موسى، حيث استفادت من موقعها على ضفاف نهر النيجر، وازدهارها في مجال الزراعة والصيد البحري. ومع تطور إمبراطورية مالي غيرت كوكيا من نشاطها وتحولت إلى ميناء نهري هام عمل على ربط وتوجيه كل السلع التي تصل إلى تادمكة، وتحويلها إلى المدن الهامة للإمبراطورية والواقعة على ضفاف نهر النيجر، أي أنها تحولت إلى نقطة التقاء نهرية للتجارة الكبرى في مالي.[6]

وبالإضافة إلى هذه المحطات التجارية الكبرى، عرفت إمبراطورية مالي أسواقا محلية عديدة اختصت كل واحدة منها في نقل سلع معينة، فمنطقة كورغو مثلا والواقعة على حدود غابة السافانا، فلقد كانت سوقا كبيرا للكولا والذهب، بينما نياني العاصمة فقد اشتهرت بأهميتها وموقعها الجغرافي الرابط بين بمنجم بوري للذهب، والغابة التي تأتي منها زيت النخيل

---

(1) E.W.Bovil and Robin Hallet , Op.Cit, p89.

(2) **Elias(N)Saad** , Social history of timbuktu , The role of muslims scholars and notables.1400-1900, Cambridge university press, 2010,p38.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص 20.

(4) حسن الوزان، المصدر السابق، ص165.

(5) E.W.Bovil and Robin Hallet , Op.Cit, p89,

(6) Ogunsola (John igue), Les villes précoloniales Op.Cit, p37.

والكولا اللذان يكثر عليهما الطلب، كما كانت سيلا في بلاد التكرور وكانو في بلاد الهوسا، عبارة عن أسواق محلية داخلية ذات نشاط موسمي.[1]

وكانت المعاملات التجارية تتم بطريقتين، فتلك التي تتم داخل الإمبراطورية تتم عن طريق المقايضة، حيث كانت تستعمل الملح كمادة للمقايضة، وهذا نظرا لندرة الملح في بلاد السودان لذا كان المليون يقاضونه بالذهب. فكانت حمولة الإبل من الملح[2] المجلوب من تغازة تباع في ولاته مقابل عشرة إلى ثمانية مثاقيل من الذهب، بينما تقايض نفس الحمولة من الملح في مدينة نياني العاصمة ما بين عشرون وثلاثون مثقالا، وقد يصل إلى أربعين مثقالا من الذهب.[3] علما بأن المثقال الواحد يعادل4.5 غرام من الذهب.[4] كما استعمل معدن النحاس أيضا كسلعة للمقايضة، فقد كان النحاس الأحمر المجلوب إلى مدينة نياني يقاض كل مثقال منه بثلثي وزنه ذهبا، ويباع كل مائة مثقال منه بستة وستين مثقال ذهب.[5] وفي تاكدة وهي مدينة النحاس كان تجارها يشترون بالقضبان القضبان النحاسية الرقيقة اللحم والحطب، ويبتاعون بالقضبان الغليظة العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح.[6]

ولقد انتشر استعمال النحاس الأحمر في المعاملات التجارية خلال فترة حكم الملك منسا موسى، إلى درجة أصبح فيه هذا المعدن هو الشيء الوحيد المعرض للمكوس حسبما أخبر به منسا موسى محدثه الفقيه أبا الروح عيسى الزواوي الذي التقاه بالقاهرة.[7] وفي بعض الأحيان كانت الأصداف التي تجلب من المحيط الهندي، والتي كان يجلبها التجار العرب، تعوض الملح والنحاس في المعاملات التجارية، وخاصة في الإمارات الشرقية للإمبراطورية مثل مملكتي غورما وجاو.[8] كما استعملت الودع في دولة مالي، فيذكر العمري بأن المعاملة في بلاد التكرور بالودع، وأن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع.[9] وكان المثقال الواحد من الذهب

---

(1) Niane temsir djibril, Le soudan occidental, p201 ,202.

(2) وكانت تقدر حمولة جمل من الملح بـ 150 كلغ. (الشكري أحمد، المرجع السابق،ص193).

(3) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص674.

(4) Niane temsir djibril, Recherches sur l'empire du mali Op.Cit, p68.

(5) العمري، المصدر السابق، ص ص 126و127.

(6) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 697.

(7) العمري، المصدر السابق، ص 126.

(8) Niane temsir djibril, Recherches sur l'empire du Mali, p68.

(9) المصدر السابق، ص 122.

يقايض بثلاثة ألاف ودعة في تمبكتو.[1] ومع وجود بعض النقود المعدنية ذات الشكل الحلزوني، والتي كانت تستعمل في المعاملات العادية، فإن العملات الأكثر قيمة ورفعة تبقى تلك النقود الذهبية الملساء التي تعرف بالدينار الأصلع، والذي كان يضرب بمالي، ويتشكل هذه النقود من قطع صغيرة من الذهب الخالص الناعم ، التي لم تكن تحمل أي ختم.[2]

ويبقى الذهب المعدن الأكثر أهمية في التعاملات التجارية وبسببه كانت القوافل التجارية القادمة من المغرب ومصر وأطراف الدنيا تقطع الصحراء الكبرى، وتكابد مشاقها ومخاطرها للوصول إلى هذا المعدن النفيس الذي أكسبته رحلة منسا موسى إلى الحج شهرة كبيرة وحيكت حوله الأساطير. وكان ذهب مالي يوجد بغالام التي تلقب ببلاد الذهب، وهي مدينة تقع عند المجرى الأعلى لنهر السنغال، وتعرف بلغة السوننكي باسم غاجاغا(Gajaaga) ويقصدون بها سكان الغرب لأنها تقع غرب الإمبراطورية.[3] كما يجلب من منطقة بامبوك وبوري في الجنوب التي كان يسيطر عليه شعب الجالونكي الكفار. وقد ارتبط استغلاله ببعض التقاليد الوثنية، فرغم انتشار الإسلام في ربوع الإمبراطورية إلا أنه كان يعتقد بأن هذا الذهب سيزول إذا ما أصبح تحت سيطرة المسلمين، لذلك حرص منسا موسى على عدم التدخل في أمور الجالونكي أسياد الذهب، ولا يأخذ منهم جزية، لكن في المقابل فهم يستخرجون له الذهب ويقدمونه له.[4]

أما المعاملات الخارجية فقد كان يتم بعضها بالعملات المختلفة، كالدرهم والدينار الموحديين والدرهم الحفصي، لكنها كانت نادرة الاستعمال[5].ومعظم التعاملات الخارجية كانت تتم مقايضة بالذهب أو العبيد أوالعاج. وقد ربط أحفاد سوندياتا علاقات تجارية مع دول البحر المتوسط، وكانت هذه التجارة تطغى عليها تجارة الذهب حيث كان العرب يمثلون حلقة وصل بين مملكة مالي ودول البحر المتوسط، وكان الذهب هو العملة الرائجة بينهم.

---

(1) طرخان(إبراهيم علي)، لمرجع السابق، ص 140.

(2) مارمول كرفجال، إفريقيا الجزء الثالث،ص 203

Mauny(Raymond), Tableau geographique, p419

(3) Abdoulaye(Bathily) , Les portes de l'or, Le royaume de Galam. Editions l'Harmattan, paris, 1989, p35.

(4) العمري، المصدر السابق،ص 127.

(5) أحمد موسى عز الدين، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة.، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 299 .

وبفضل رحلة الحج التي قام بها منسا موسى والشهرة التي اكتسبها في القاهرة والحجاز، فإن التجارة العابرة للصحراء قد ازدهرت وازدادت حجما وتدفقا، خاصة بعدما أصبحت مالي معروفة أكثر في المغرب والمشرق الإسلاميين وأوربا، فأصبحت المراكز التجارية المالية كولاته تعج بالملابس المستوردة من مصر والشام، كما أن إبرام منسا موسى لعلاقات دبلوماسية مع كل من المرينيين بفاس والمماليك بمصر وأشراف مكة، أضاف مجالات واسعة لتجارة مالي، وجعل منها قطبا تجاريا لا يمكن تجاوزه.

رابعا. إسهامات مملكة مالي في بناء الصرح الحضاري العالمي .

1. في ميدان التشريعات(-كوروكان فوكا)

تنسب الروايات الشفوية لسونديانا كيتا إنشاء أول دستور عرفه السودان الغربي في تاريخه، ويعد هذا الدستور الذي أنشئ في قرية "كوروكان فوكا " عام 633هـ/ 1236م حسب هذه الروايات، بمثابة الميلاد الحقيقي للأمة المالية بأكملها[1].وتقعقرية كوروكان فوكا قرب مدينة كنغابا، على بعد200كيلومتر جنوب مدينة بماكو الحالية[2].اختارها الماليون لتكون مقرا لميلاد دستورهم[3]الذي سوف يقنن قواعد عرفهم ومحرماتهم التي كانت تنظم العلاقات فيمنا بين عشائرهم، وبين عشائر الغرب الإفريقي الأخرى[4].فكان ذلك الإجتماع إذن بمثابة جمعية تأسيسية حقيقية للإمبراطورية المالية الناشئة.

---

(1) **Diawara(Gaoussou) :**Aboubakari2,explorateur Manding. Edits L'harmattan, Paris, 2010. ,p51

(2) Sissoko(Birama) ,La charte de l'ancien empire du Mali pourrait inspirer les Maliens d'aujourd'hui. In site : ***http://base.d-p-h.info/fr/fiches/organisme - 158.html.***consulté le 04-12-2010

(3) تم اكتشاف هذه النصوص القانونية عام 1998م خلال عقد ملتقى نظم في منطقة "كاكان" بغينيا، بمبادرة من الوكالة، الفرنكوفونية عن طريق مركز C. I (consultant international) ومركز الدراسات اللسانية والتاريخية عن طريق الروايات الشفوية.

(Centre d'études linguistiques et historiques par les traditions orales. CELHTO)، وجمعت الباحثين والرواة الشفويين القادمين من السنغال وبوركينا فاسو ومالي، ومن مختلف المقاطعات لجمهورية غينيا. وكان الهدف من هذا الملتقى هو تشجيع التعاون بين الرواة الشفويين التقليديين، والباحثين المعاصرين من أجل الحفاظ على التراث... =الشفوي الإفريقي. فأخذ الرواة يسردون رواياتهم التي يعرفونها حول القوانين التي سنها سونديانا. وبذلك تمكن المؤتمر من جمع كل مواد القوانين وعددها 44 مادة.

(4)نيان تمسبر جبريل، ماليو التوسع الثاني للماندينغ، ص 135 .

(5)Diawara (Gaoussou) ,Op.Cit, p51

ولقد كانت فكرة تنظيم ذلك الاجتماع من اقتراح كبيري الرواة الشفويين الخاصين بسونديانا كيتا وهما:بالا فاسيكي كوياتي(Bala fasséké Kouyaté)،وكالاجيسونغوي دياباتي(Kaladjé Songhoï Diabaté) بالإضافة حكام الإمارات المندية[1]. لكننا نضن بأن سونديانا كانت له النية أيضا بعقد هذا المؤتمر، وتزويد إمبراطوريته بميثاق حتى قبل أن يقترح عليه الأمر من طرف هؤلاء الرواة والأمراء، ذلك أن رواة كيرينا يذكرون بأن سونديانا كان قد أطلع نبلاء مدينة كيتا عندما زارهم من أجل الاستحمام في بحيرة "موكويا - جي" بأنه سيعلن قريبا عن ميثاق أساسي لكل بلاد مندن، وقد ذكر ذلك باللغة المالنكية حيث سماه مندن باسيكي كان (Manden bassigui kan)[2].

انعقداجتماع كوروكان فوكا سنة633هـ/ 1236م، أي بعد سنة واحدة من انتصاركيرينا الشهير، لكننا لم نجد في المصادر الشفوية اليوم والشهر الذي انعقدت فيه. وتشير هذه المصادر إلى أن قرية "كوروكان فوكا" أخذت اسمها من هذا الحدث السياسي والتاريخي الهام، فهي تتشكل من ثلاث كلمات مالنكية هي:كورو وتعني جمعية، كان وتعني اليمين وفوكا التي تعني الفرجة في الغابة[3].

و بهذا تكون هذه الكلمة المركبة تعني (الجمعية التي أدي فيها اليمين). وقد انعقد هذا المؤتمر تحت القيادة السامية لسونديانا، وكان نائبه هو أخوه غير الشقيق مندي بوري، ومحاط بأربعة من رؤساء قبائل هم : سيبي كاماجان كامارا، تابون نغابا فران كامارا، فاكولي كوروما أو(دومبيا) وتاولي تونكارا (وهو الأخ الأصغر لملك نيما وهو نيما موسى تونكارا). حيث يعتبر هؤلاء الرجال من اقرب الناس إلى سونديانا، باعتبارهم كانوا هم من رافق سونديانا إلى منفاه بميما، ودعموه في كل قراراته[4].

لقد تمخض عن اجتماع كوروكان فوكا أربعة وأربعين قانون أو قرار[5].شملت تنظيم السلطة السياسية، وحددت العلاقات الاجتماعية، ونصت على المبادئ الأساسية الموجهة

---

(6)Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste,t2 p 38.

(1) **Diawara (Gaoussou)** ,Op.Cit, p51

(2) **Ibid**, p52

(3) تقول بعض الروايات المنقولة بأن هذا الدستور يتضمن 130 مادة، لكنها لم تحتفظ إلاّ بـ 44 مادة فقط. أنظر: سولومانا كونتي: مذكرة تاريخ مندن القديم و الحديث

والمنظمة للحياة اليومية في مندن. كما قررت هذه الجمعية اختيار إمبراطور مالي، حيث نودي بسونديانا رسميا منسا (وتعني ملك باللغة المالنكية)،أو ماغان(أي إمبراطور بلغة السوننكي)، وكان ذلك أول قرار يتخذ في هذا الاجتماع. وإذا أردنا تصنيف قوانين دستور كوروكان فوكا إلى ميادين مختلفة، فإننا نجدها تشمل الميادين التالية:

2.التنظيم الاجتماعي:

إن هذه القوانين كانت عبارة عن مدونة سلوك اجتماعي، وذلك من خلال تنظيمها للحياة الاجتماعية داخل المجتمع المندي الكبير، وكل العشائر المنضوية تحت إمبراطوريته، فلقد قسم المجتمع إلى طبقات على أساس حرفي ومهني، وكل طبقة لها دور خاص ومكانة خاصة في المجتمع[1]، وبذلك فقد تم تقسيم المجتمع إلى الطبقات التالية:

. **الرجال الأحرار** :وهم المكونين من 16 عائلة أوعشيرة، والمعروفين بحاملي الجعاب[2]، والتي تعرف عند المندي بمصطلح " ملندينغ - جون - تان - ني - وورو -Manding djon-tan-ni) woro)، والتي تعني مجموعة العشائر الحرة للماندينغ و الإمبراطورية[3].

.المرابطون(أو رجال الدين):

وتضم خمس عشائر، التي يطلق عليها اسم ماندينغ - موري - كاندا – لولو، وتعني (العشائر حامية الإيمان والدين)، وهي عائلات كل من سيسي، بيريتي، توري، ديابي، بالإضافة إلى سيلا أو (كوما)، حيث نصت المادة الثانية من الميثاق على احترامهم وتقديرهم[4].

.طبقة الرواة الشفويين(الجيلي):

وينقسمون إلى أربع قبائل كبيرة، وكل منها تتألف من عشيرة أو عدة عشائر تعرف بـ" غنارة - ناني"[1].

In revue électronique : ***Copyright***, N°C, année 1999-2000 .

(4) Centre for linguistic and historical studies by oral tradition (CELHTO), La charte de kurukan Op.Cit, p11.

(**1**) حاملو الجعاب هم حاملي القوس والرماح ، أي المحاربين الذين يدافعون عن حدود إمبراطورية مالي، وهي عائلات تراوري، كوندي، كامارا، كوروما، كاميسوكو، ديالو، دياكيتي، سيدبي، سنغاري، دانسوبا، ماكاسوبا، دياوارا، ساكو، فوفانا،كواتا و ديابي.

(2)Niane Temsir Djibril , Le soudan occidental Op.Cit, p36.

(**3**)CELHTO , La charte de Kurukan fuga, p42.

.الطبقة النبيلة:

وتتكون فقط من العائلات المتحالفة مع سونديانا منذ البداية، وهي عائلات آل كوندي في منطقة دو، آل كوروما، آل تراوري وآلكامارا في مندينغ القديم[2].

.طبقة نياكامالا:

وهي طبقة الحرفيين وأصحاب المهن، ويمكن تسميتهم بـ"تيريرا" أو " دانيوكو"، وهم أقلية في المجتمع[3]. وتنص المادة الثانية من ميثاق كوروكان فوكا على إلزام طبقة نياكامالا بقول الحقيقة لرؤسائهم، وأن يكونوا مستشارين لهم، وأن يدافعوا بالقول والفعل عن القوانين والنظام المقام في الإمبراطورية[4].

و بالإضافة إلى هذه الطبقات، فقد وجدت طبقة العبيد التي تضم عددا من العشائر، كما تم تقسيم المجتمع أيضا إلى فئات عمرية، حيث ينتمي كل الذين وُلدوا في فترة ثلاث سنوات متتالية إلى نفس الفئة العمرية،وأعطى للفئة العمرية الوسطى(التي تنحصر بين فئة الشباب وفئة الشيوخ)[5]حق المشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية الكبرى التي تخص المجتمع[6].

3. الحقوق والواجبات:

وقد تضمنت قرارات المؤتمر حقوقا و واجبات كل فئات المجتمع المندي. فبالنسبة للحقوق فقد تضمن هذا الدستور حق كل إنسان في الحياة وفي الحفاظ على سلامته الجسدية، بل أنه اعتبر بأن كل مساس بحياة الآخرين فإن عقوبتها الإعدام[7].

كما تضمن هذا الدستور إقرارا بحقوق المرأة، فقد نصت المادة 14 منه على عدم إهانة النساء لأنهم أمهاتنا،حيث استلهم الدستور هذه المبادئ من الأعراف والأفكار الإفريقية والتي

---

(4)**Niane Temsir Djibril** ,Le soudan occidental, Op.Cit, p36.

(5)**Christophe(Daum**) ,Les associations de Maliens en France, Édition Karthala, Paris,1998,p69

(4) CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p19

(5) Kouyaté Siriman , Op.Cit, p7

(6) Ibid,p7

(7)CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p19- Kouyaté Siriman : *Op.Cit,* p7

تعطي مكانة مهمة للأم والزوجة والأخت والخالة والعمة، فهي على ما يبدو لم تستورد هذه المبادئ ولم تكن نتيجة تأثّر بثقافة أخرى. فبهذا الخصوص تنص المادة 11 من الدستور على أنه لا يجب تتبع الزوجة إلى بيت الجيران أو مطاردتها في حالة ما إذا هربت من بيت زوجها. ولم يكتف ميثاق كوروكان فوكا بحماية المرأة فقط، وإنما فتح لها مجالات البروز والمشاركة في الحياة السياسية، حيث تنص المادة 16 من بيان الميثاق على ما يلي«إن النساء، بالإضافة إلى انشغالاتهم اليومية، يجب أن يشاركوا في كل شؤون حكمنا» [1].

وهكذا نجد بأن سونديانا قد أشرك المرأة في النقاش السياسي وفي قضايا الأمة. فلقد كان للنساء في المجتمع المندي جمعيات قوية تعرف بـ"نياغاموسو" (Niagamoussou)، حيث تستشار النسوة في تقديم رأيهن بخصوص المشاكل التي تواجه القرية ليساهمن في إيجاد الحلول لها. كما حافظ الميثاق على حقوق المسنين، وأوجب احترام كبار السن وتقديرهم.

أما فيما يخص الواجبات، فقد اقتصرت على العلاقات الاجتماعية بين الفئات، وحددت واجبات كل فئة مع الآخرين. ذلك أن المادة الثانية من قانون كوروركان فوكا نصت على واجبات طبقة الحرفيين (نياكامالا) والتي تضم الحدادين والنساجين وغيرهم، وهي ضرورة قول الحقيقة لرؤسائهم، وأن يقدموا لهم المشورة للأمة. كما فرض على المجتمع المندي طاعة وتقدير واحترام رجال الدين المعروفين بموريكاندا (Morikanda)، بالإضافة إلى وجوب احترام الرواة الشفويين المعروفين بالجيلي باعتبارهم يشكلون ذاكرة الأمة وتاريخها[2].

4.تنظيم الأسرة والعلاقات الاجتماعية:

لقد اهتم المجتمعون في كوروكان فوكا بالخلية الأساسية للمجتمع وتنظيمها ألا وهي الأسرة، حيث تضمنت قوانين ميثاق مندي نصوصا تخص الأسرة والطفل والعلاقات الاجتماعية.ففيما يخص الأسرة فقد بدأها بتعزيز مكانة المرأة التي تعد عنصر أساسي في المجتمع، فهي الأم والزوجة والأخت والخالة والعمة والجدة،وبذلك فقد حافظ على حقوقها وأجبر الجميع على احترامها كما رأينا. و بما أن الزواج هو أساس تكوين هذه الأسرة فقد حدد ميثاق كوروكان فوكا سن الزواج لكلا الجنسين، فبينما جعل سن زواج الفتاة هو بلوغها[3]

---

(1) المادة 27 من الميثاق.

(2)Kouyaté Siriman, Op.Cit, p7

(2) المادة 27 من الميثاق.

فإن الشباب يمكنهم الزواج ابتداء من سن العشرين[1]. وهو السّن الذيتكتمل فيه القوة الجسدية للرجل، كما حدد مهر العروس بثلاثة ثيران يقدم اثنان منها لأبويها وتأخذ العروس ثورا واحدا[2].

وفيما يخص الطلاق، فقد سمح به لكن في حالات محدودة جدّا وهي: العجز الجنسي عند الرجل أو إصابة احد الزوجين بالجنون، بالإضافة إلى الحالات التي يكون فيها الزوج غير قادر على تحمل متطلبات الأسرة. كما حدد ميثاق مالي العلاقات الأسرية بين الزوج وزوجته وبين الأصهار، حيث أوصى بالتسامح كمبدأ للمعاملة بين الأصهار وكذا بين الأجداد وأحفادهم[3].

كما جعل مكانة الصهر (والد العروسة) مقدسة وصنفها في مرتبة كلمة الشرف التي يقدسها المنديون. فقد جاء في المادة19 من الميثاق بأن كل رجل لديه نوعين من الأصهار هما، والد الفتاة التي لم يحصل عليها بعد، والكلمة التي تلفظ بها ولن أن يتراجع عنها[4].أي انه على كل رجل أن يحترم كلمته مع والد الفتاة التي تقدم لخطبتها، و أن كلامه معه هو بمثابة كلمة الشرف التي تعد مقدسة عند المنديين.ولمعالجة المشاكل الزوجية اليومية، فإن الميثاق وضع نقاطا فيما يخص تعامل الرجل من تتبع زوجته الهاربة إلى بيت جاره، أو إلى بيت زعيم القرية أو رجل الدين أو بيت الصديق أو بيت الشريك في العمل، وهو نفس الأمر الذي ينطبق علىالأبناء إذا ما ارتكبوا مخالفة وهربوا من البيت[5].

والمغزى من ذلك هو عدم استعمال القوة لإعادة أحد أفراد العائلة إلى البيت، وكذا إبراز مكانة هؤلاء الناس الذين استجار بهم أحد أفراد العائلة عند المندي، حيث أن شفاعة هؤلاء لا ترد عادة. كما نستخلص من هذه المادة أيضا هوالدعوة إلى التعقل وضبط النفس في أوقات الغضب، وعدم التسرع في رد الفعل وإعطائها فرصة للهدوء ومراجعة الموقف لتفادي التداعيات الوخيمة. وقد خصصت بعض بنود الميثاق للتربية وأولتها أهمية كبرى، فقد جاء في

(3)المادة 28

(4)المادة 29

(1) المادة 30.

(2)CEHLTO , Op.Cit,p49.

(3)CEHLTO , Op.Cit,p18

المادة التاسعة منها بأن تربية الأطفال هي مسؤولية كل المجتمع، وأن الأبوّة يشترك فيها الجميع أيضا[1].

وبذلك أشرك جميع أفراد المجتمع في العملية التربوية من خلال إلزام كل واحد بإرشاد الطفل إذا أخطأ، وتأنيبه إذا ما تمادى في خطئه. وفي مجال العلاقات الاجتماعية والآداب العامة، فقد وضع ميثاق مندي نصوصا حدد بها المعاملات والسلوكات التي يجب إتباعها بين الناس، ودعا إلى احترام العلاقات الاجتماعية. فلقد ركز سونديانا على علاقات القرابة والجيرة كأساس للتوافق و الوئام بين أفراد المجتمع والشعب المندي من خلال ما نصت عليه المادة 40 من القانون من ضرورة احترام القرابة والزواج والجيرة[2]. وبذلك اعتبر الجار من أقرب المقربين وفي منزلة القريب من حيث الدم أو القريب من حيث المصاهرة، وهو بذلك يجسد العادات المالنكية المبنية على صلة الرحم وتقديس الجار. فهناك مثل مالنكي يقول: ((إن جارك هو أقرب أقربائك، فعندما يصيبك سوء فهو أول من يجب أنيعلم، وأول من يستطيع مساعدتك))[3].

هذا وقد دعا الميثاق إلى وجوب مساعدة من طلب مساعدتنا[4]، وإلىضرورة تقدم التعازي إلى بعضنا البعض[5].وأوصى بعدم الإساءة للعبيد، وضرورة إعطائهم يوما للراحة في الأسبوع، والحرص على أن يعملوا في أوقات معقولة، حيث جاء في المادة 20 من الميثاق: ((نحن أسياد على العبيد ولكننا لسنا أسيادا على الكيس الذي يحملونه))[6]. أما فيما يخص معاملة المرأة المتزوجة التي تخطئ، فقد نص على عدم وضع أيدينا عليها إلا عندما تفشل كل محاولاتنا في جعل زوجها يتدخل في ذلك[7].

أما في مجال الآداب العامة والسلوك الواجب انتهاجه بين الناس، فقد أوصى سونديانا بجملة من المبادئ والمعاملات الإنسانية، فنجد في المادة 23 من ميثاق مندن نصا يفيد بما يلي:

---

(1) Kouyaté Siriman **,** Op.cit., p7

(2)CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p49

(2) Niane temsir djibril , Introduction du livre (la charte de kurukan fuga),p18

(3)المادة 30.

(4)مادة 10

(5)Kouyaté Siriman , Op.cit p8

(6) Ibid,p7

((لا تخدعو بعضكم بعضا، واحترموا كلمة الشرف بينكم))[1]. ودعا إلى عدم الاعتداء على الأجانب[2].وبخصوص هذا البند نذكر الشهادة التي قدمها لنا الرحالة ابن بطوطة فيما يخص احترام الأجانب وحسن معاملتهم ، حيث يذكر بأنه من الأعمال التي استحسنها من أهل مالي قلة الظلم عندهم، وأن سلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، وهذا ما أدى إلى استتباب الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر إليها ولا المقيم فيها من سارق ولا غاصب، وأنه حتى وإن مات ببلادهم أحد من البيضان فلا يتعرضون لأمواله ولو كانت القناطير المقنطرة[3].ودعت قرارات اجتماع كوروكا فوكا الشعب المالي إلى التواضع وعدم الغرور ، لأن الغرور هو رمز الضعف بينما التواضع والإنسانية هي رمز القوة[4].كما أوصى الميثاق بحسن معاملة الرسل والمبعوثين والمكلفين بمهمات، وأعطى لهم الآمان، حيث نصت المادة 25 منه: ((إن المكلفين بالمهمة لا يخشون شيئا في مندن)).

هذا وقد أعطى دستور مالي للمندبين طريقة التعامل مع العدو وأوصى المحاربين بالنبل والشرف حتى مع أعدائهم، إذنجد في المادة 32من القانون: ((أقتلوا عدوكم لكن تنكّلوا به)). كما شجع على العمل وحدث عليه واعتبره الوسيلة الأساسية للرقي والازدهار. فسونياتا حسب عدة رواة كان يشيد ويمجد أصحاب المهن، وهي المهن التي بدونها لا يستطيع المجتمع أن يوجد، كما كان يشجب الكسل[5].لهذا تذهب المادة السادسة من الميثاق إلى أنه لربح معركة الرخاء فإنه تم إنشاء نظام عام للمراقبة من أجل الكفاح ضد الكسل والخمول تعرف بكونوغبان ولو (Konogbène wolo) والتي تعني (عالم المراقبة من أجل النضال ضد الكسل والخمول)[6].

ويقوم هذا النظام الخاص على المراقبة العامة من أجل محاربة الكسل من فئة معينة من السن التي توكل إليها مهمة مراقبة العمل داخل الحقول، وتعرف بباراتيكي (Baratigui)، والتي

---

(7) Kouyaté Siriman : Op.cit p8 .

(2)المادة 24

(3)رحلة ابن بطوطة، ص690

(4)المادة 22

(3)Kouyaté Siriman , Op.cit p7

(4)Niane temsir djibri ,Op , Cit,p20 .

تبحث عن أولئك الناس الذين يأكلون على حساب الآخرين (أي الذين يتقاعسون عن العمل) ومن ثم إعادتهم إلى العمل في الحقول[1].

5. تنظيم الملكيات:

لقد خصصت المواد من 34إلى39 من الميثاق الذي ظهر في كوروكان فوكا للتشريعات الخاصة بتنظيم الملكيات المنقولة والعقارات، وقد حددت المادة 34 منه الطرق الخمس للحصول على ملكية ما، وهي: الشراء، العطاء(الهبة)، التبادل والوراثة. وأي صيغة أخرى للملكية غيرها تعد غير شرعية وباطلة [2].أما إذا وجد أحدهم شيئا بدون مالك معروف فإنه لا يصبح ملكا له إلا بعد أربعة أعوام[3].وبخصوص السرقة من أجل سد رمق الجوع فقد أجازها الميثاق بشرط أن لا يملك السارق حين يسرق شيئا في كيسه أو جيبه، أي لا يجب أن يأخذ معه شيئا من الحقل[4].

أما بالنسبة لملكية الحيوانات، فإنه أقرّ بأنه عندما تلد العجلة فإن مولودها سيكون ملكا للحارس، بينما عندما تبيض الدجاجة فإن الحارس لا يأخذ سوى بيضة واحدة من كل أربع بيضات حسب ما تنص عليه المادة34.وإذا أراد أحدهم أن يبدل ثورا فإن كل ثور يبدل بأربعة كباش أو أربع عنزات[5]. كما حدد هذا الفصل واجبات الملاك بالنسبة لحيواناتهم، بحيث تنص المادة 39 من الميثاق على أن الحيوانات الأليفة يجب أن تربط وقت الزرع وتطلق بعد جني الثمار، وقد استثنى من ذلك القطط والكلاب والبط والأبقار[6].

6.حماية البيئة:

كان للبيئة نصيب وافر من اهتمامات سوندياتا، وخصص لها ميثاقه عدة مواد للحفاظ عليها، وخاصة الغابات التي تنتشر بكثرة في مرتفعات ماندينغ، وتشكل البيئة الأساسية للمالنكي، حيث تنص المادتين 40و41 من القانونالمنبثق عن اجتماع كوروكان فوكا على أن

---

(5)CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p49- Kouyaté Siriman , Op.cit., p9.

(6)Ibid,,p49

(1)المادة 35.

(2)المادة36.

(3)المادة95.

(4)CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p49.

الغابة هي أغلى ما يملكه المندن، وبالتالي أوصى بوجوب حمايتها والمحافظة عليها من طرف جميع السكان من أجل سعادتهم. كما شدد كثيرا على الاحتياطات الواجب مراعاتها في حالة إشعال النار في الغابة لسبب من الأسباب، حيث جاء في المادة 41 بأنه قبل إشعال النار في الغابة لا يجب أن ننظر إلى الأرض، وإنما يجب رفع رؤوسنا إلى قمة الشجرة[1]. وهذا من اجل إدراك قيمة الشجرة وجمالها، وبالتالي يحث هذا الدستور على ضرورة منح الإنسان الذي يريد إشعال النار في الغابة الوقت لمراجعة قراره، ومعرفة خطورة الأمر الذي يقدم عليه.

أما فيما يخص الحيوانات فقد دعا الميثاق إلى ضرورة ربط الأليفة منها في أوقات الزرع ولا يطلقونها إلا بعد انتهاء موسم الجني [2].وهذا حتى لا يتسببون في إفساد الزرع و المحاصيل الزراعية، ويستثنى من هذه التعليمة كل من الكلاب والقطط والبط والدواجن[3]،حيث لا يخضعون لهذه التدابير وذلك ربما لكونها حيوانات تعيش على التقاط غذائها بنفسها، ولا تتسبب في إفساد الزرع. أما بالنسبة للكلاب فغنهم يحتاجون إليها طليقة حتى تقوم بمهمة الحراسة.

7.النظام السياسي:

لقد سطّر اجتماع كوروكان فوكا باعتباره جمعية تأسيسية أو (جبارا Djbara) بالمالنكي، مبادئ الحكم والإدارة لإمبراطورية مالي، والذي جعل منه نظاما ملكيا وراثيا يكون الملك فيه لسونديانا . الذي لقب بمنسا(أي الإمبراطور) . ولأبنائه وأحفاده من آل كيتا من بعده. كما نصت بنوده على وجوب اتخاذ أمراء المندي من آل كيتا زوجاتهم الأولى دائما من بين نساء عشيرة كوندية، وهذا تخليدا لذلك الزواج التاريخي الذي بين والد سونديانا ناري فاماغان بسوغولون بيريتي والدة سونديانا والتي تنتسب لآل كوندية[4].

ولقد حافظ دستور مالي الجديد على التقاليد الإفريقية القديمة التي تجعل الشقيق يخلف شقيقه في الحكم، بالإضافةإلى احتفاظ المنسا بمنصب القاضي الأول في البلاد، على

---

(5)Kouyaté Siriman ,Op.cit., p9.

(1)Ibid,p9

(2)Ibid.,p9.

(4)**نيان تمسير جبريل**، مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 145.

اعتبار أنه رب العائلة والرعية. لهذا نجد أن ملوك مالي من آل كيتا كانوا يخاطبون من طرف شعوبهم بكلمة "مغا منسا" والتي تعني أبي الملك[1].

وتحدد المادة 12من قانون كوروكان فوكا شروط انتقال الحكم من ملك ميت إلى ملك آخر، فرغم أن وراثة الحكم عند آل كيتا تتم بطريقة أبوية[2]، إلا انه لا يحب أن يعطى الحكم إلى الإبن في حالة وجود أحد أبائه حيا[3].أي أنه لا يمكن توريث ابن الأخ طالما أن أباه مازال حيا، ولا يمكن توريث الإبن طالما أن عمه على قيد الحياة، كما يمنع إعطاء الحكم للطفل القاصر الذي لم يبلغ سن الرشد[4].

ونشير هنا إلى أن سوندياتا كرس التقاليد المتبعة في إفريقيا الغربية فيما يخص نظام الحكم والتداول على السلطة وكذا صلاحيات الملك،حيث كانت عملية اختيار الملك الذي يرث العرش تتم من طرف العائلة الملكية، والملك الجديد لا يتولى مهامه رسميا إلا بعد إجراء جملة من الطقوس الضرورية لذلك. كما أن سلطة الملك كانت تخضع لشيء من الرقابة البرلمانية، من خلال تواجد مجلس يشبه البرلمان مكون من الوزراء والنبلاء معينين بطريقة وراثية، بالإضافةإلى رجال الدين ورؤساء بعض العائلات [5].

وبذلك يكون سوندياتا قد أسس للنظام البرلماني في إفريقيا، وابتعد بذلك عن النظم المطلقة المتبعة في ممالك السودان الغربي آنذاك. حيث نجد في المادة 42 من ميثاق مندن ما يشير إلى وجود مجلس أو برلمان يمثل صوت الشعب، والذي ذكر بالتجمع الكبير، وتنص المادة المذكورة على أن الشعب يكتفي بممثليه الشرعيين في هذا التجمع[6].

وفي الأخير اختتمت مواد الميثاق بأحكام نهائية تُذَكّر بضرورة تطبيق ما جاء في نصوصه، وتحذّر من العقاب كل من يخالفها عبر كامل التراب المالي[7].وبذلك أعطت مواده صفة

(**1**) **نفسه**، ص 145.

(**5**)و هذا خلاف ملوك غانة الذين كانوا يورثون ابن الاخت في الحكم، حيث يقول عنهم البكري،(المصدر السايق،ص175: « و تلك سيرتهم و مذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن اخته ويشك في ابنه»

(**6**) **Kouyaté Siriman** , Op.cit., p7- CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p48

(**1**) Ibid,p7

(2)Delafosse(Maurice) , Les civilisations Négro-africaine. Librairie Stock, Paris, 1925, p92

(3)CEHLTO, Op.Cit ; p9

(**4**)Kouyaté Siriman ,Op.cit., p10.

الإلزامية، وجعلت منه الدستور الوحيد في أرجاء الإمبراطورية. وبهذا يكون سوندياتا أول ملك سوداني استطاع أن يوحد إمبراطورية كلها، بجميع إماراتها،ومختلف شعوبها وعشائرها، حول دستور واحد تذوب فيه كل الاختلافات التشريعية، وتنسجم فيه جميع تقاليد ومبادئ الإمبراطورية، وتخضع له جميع الطوائف والعشائر والطبقات. كما يكون سوندياتا قد اقترب بذلك كثيرا إلى مفهوم الدولة الوطنية، وهو في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد/السابع للهجرة. حيث ينسب الرواة الشفويون لسوندياتا تصريحا يكون قد أدلى به أمام الجمعية التأسيسية التي دعاها إلى كوروكان فوكا من اجل المصادقة على الميثاق بعد تعديلهن جاء فيه: ((الآن، وبعد أن أصبحنا أسيادا لقَدَرنا، سوف نؤسس وطننا على أسس متينة وعادلة، ومن أجل هذا علينا أن نسن القوانين التي لا بد على الشعب احترامها وتطبيقها))[1]

8.التنظيم الإداري للدولة:

قسم سوندياتا الإمبراطوريةإلى نوعين من المقاطعات، وهي:

1. تلك التي انضمت إلى سوندياتا منذ البداية وبمحض إرادتها، وهي المقاطعات التي احتفظ ملوكها بألقابهم كملوك[2] مثل ميما وكومبي صالح، حيث يذكر العمري بأنه ليس في مملكة مالي من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة، وهو كالنائب له وإن كان ملكا[3]. بينما كانت إمارة ميما هي من احتضنته في صباه، واتخذ منها منفى له، وجهّز جيشه لمحاربة الصوصو حسب الروايات الشفوية[4].

2. أما النوع الثاني من المقاطعات، فهي تلك التي انضمت عن طريق الفتوحات العسكرية، والتي كان يعين فيها حاكما أو فران(Faran)إلى جانب الرئيس التقليدي[5]،لكنها حافظت على استقلال داخلي ملحوظ[6].وبذلك يكون سوندياتا قد شكل نظاما إداريا فيدراليا مكونا من

---

(1) Youssouf tata cissé et Wà kamissoko, La grande geste du Mali, tome2, p39.

(2) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص 145.

(3) مسالك الأبصار، الجزء الرابع، ص 110.

(4)Youssouf tata cissé, Op Cit, p39.

(5)**نيان تمسير جبريل**، المرجع السابق، ص،146.

(6) **Janson (Jan),Epopée**, histoire, société, Le cas de Soundjata, Mali et Guinée, p85,

عدد كبير من الإمارات[1] والحاميات العسكرية المكونة منالجنود المندينكا لضمان الأمن، ولقمع أي ثورة أو انتفاضة محتملة[2].وفي نفس الوقت نجد أن سونديانا قد حافظ على الطابع المركزي للدولة من خلال تعيين أفرادا من عائلة كيتا على هذه الإمارات والممالك برتبة "فاربا" أو "فاران"[3].

وتتخلص مهمة الفاربا في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية، ويساعده في عمله كاتب ينفذ أوامره[4].ولقد حاول سونديانا أن يقيم صلات وثيقة بين مختلف العشائر المندية والعشائر المنتمية لأعراق سودانية أخرى، ويحدث انسجاما بينهما. كما أدمج تلك العشائر في الدولة المالية الكبرى، فنجده يمنح قبائل السومونو والبوزو(وهي من العشائر المندية) لقب سادة المياه، من خلال إشرافهم على الملاحة في النيجر. كما قام بتوزيع قبائل الصوصو على الطوائف الحرفية، واعتبر أقاليمها من أملاك الإمبراطورية[5].

كما قسم سونديانا الإمبراطورية إلى منطقتين عسكريتين كبيرتين، شمالية وجنوبية يشرف عليهما قائدان يخضعان لأوامر سونديانا شخصيا، فكان قائد الناحية الشمالية يسمى"سنكار - زوما"، أما قائد الناحية العسكرية الجنوبية فيسمى "فاران - سورا"، وكل واحد من هؤلاء القادة يخضع له عدد من الضباط وعدد من الكتائب، والجنود[6].

وكان الجيش مكون من طبقة المحاربين المندين المعروفين باسم كالا - تيغي(Kala – tigui)،والذين يشكلون ارستقراطية عسكرية مميزة بنظامها التربوي الصارم المرتكز على الصبر والجلد، حيث كان أفراد هذه الطبقة تتدرب على التأقلم مع الحياة الريفية الصعبة منذ

---

(7) نظم سونديانا إمبراطورية مالي لا مركزيا بحيث قسمها إلى400 مدينة، و إلى20 إمارة، وكل إمارة مقسمة إلى مقاطعات، وكل هذه الكيانات الإدارية كانت مسيرة من طرف سلطات دينية وسياسية مسؤولة أمام الملك وتعرف بالفاربا. (Tidiane N'diaye :La grande marche des peuples noirs.)

(8) Panhuys (Henri) , La fin de l'occidentalisation du monde. Editions l'harmattan, Paris 2004, p319.

(1) Trimingham (Spencer) , The history of islam in West Africa.p76.

(2)الشكري أحمد، المرجع السابق، ص 190 . السعدي(عبد الرحمان)، تاريخ السودان،ص10

(3) نيان تمسير جبريل المرجع السابق، ص 145.

(4) السعدي، المصدر السابق، ص 11. Niane temsir djibril ,Le soudan occidental , Op.Cit. p120

بلوغهم سن السابعة من العمر، وتستمر إلى غاية سن العشرين، يجتاز خلالها هؤلاء الشباب عدة مراحل من الصعاب والتمرينات الشاقة، يثبتون خلالها قوة صبرهم وجلدهم، كما يتعلمون المصارعة والصيد والقنص، وتنتهي العملية بالاختتان الجماعي في سن الثامنة عشر أو العشرين، بعدها يصبح الشاب رجلا قادرا على الحرب والدفاع عن قبيلته ووطنه، كما يحق له بعد ذلك ارتداء لباس الرجال وهو القبعة والقميص والسروال، كما يصبح ملزما بالاستجابة لنداء الملك في حالة التعبئة للحرب، لكنهم لم يكونوا ملزمين بالمكوث داخل الثكنة[1].وبالإضافة إلى الجيش الملكي فقد أحاط سونديانا نفسه و دولته بمجموعة من الأسر المخلصة والمقربة منه، مثل أسرة توري، سيسي وبيريتي، وهي عائلات تتميز بالإضافة إلى الإخلاص لسونديانا وعائلته، بالثقافة والعلم[2].

أما فيما يخص النظام القضائي فيبدو أن سونديانا كان يتولاه بنفسه، إذ كان يمثل القاضي الأول في البلاد، لهذا فلقد كان يمارس القضاء من خلال المقابلات اليومية مع رعيته، وخلال هذه المقابلات كان يستمع بنفسه لشكاويهم ضد أعوانه وممثليه في مختلف الإمارات والمقاطعات، وكذا ولاته الذين عينهم على الأقاليم، حيث كان يتخذ القرارات الفورية، وكانت أحكامه إلزامية ولا تقبل النقض ولا الاستئناف[3].

9. محاربة الرق:

يذكر الإدريسي (ألف كتابه سنة548هـ/115م) بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا يغيرون على أرض لملم ويسلبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم، فيبيعونهم إلى التجار الداخلين إليهم، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار[4].كما ذكر ابن سعيد الذي جاء من بعده بأكثر من سبعين سنة (ألف كتابه بين 625و640 للهجرة/1228و1243ميلادي) بأن أهل ملم يعرفون من خلال الرقيق في بلاد المغرب[5].

(**1**)Niane temsir djibril ,Op.Cit,p121

(2) Panhuys(Henri) ,Op.Ci, tp319,

(**3**) **Sow(Amadou aliou**) ,La Mauritanie mon pays natal. Editions l'harmattan, Paris, 2003, p26,

(**4**)المصدر السابق، ص 33.

(**5**)كتاب الجغرافيا، ص ص 91 و92.

وبذلك نستنتج من خلال هذين النصين بأن تجارة الرقيق كانت منتشرة في بلاد مندي، وبأن السودانيين أنفسهم هم من كانوا يغيرون على سودانيين آخرين مثلهم ويبيعونهم إلى تجار الرقيق. وإذا علمنا بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا مسلمين في الفترة التي كتب فيها الإدريسي، فإن هذا يدل على أن المسلمين السودان كانوا يغيرون على أهل لملم باعتبارهم كفار يجوز سبيهم. وبما أن الفترة التي كتب فيها ابن سعيد تتزامن مع جزء من الفترة التي حكم فيها سوندياتا إمبراطورية مالي[1].فإن ذلك يبين بأن هذا الأخير يكون قد عاصر فترة استرقاق الزنوج من أرض اللملم أو غيرها، وبيعهم إلى تجار المغرب، فلقد كانت ظاهرة القبض على أشخاص أحرار وتحويلهم إلى عبيد وبيعهم في أسواق النخاسة منتشرة كثيرا في بلاد الماندينغ،[2]

وكان بعض قادة سوندياتا المقربين يمارسون هذا العمل، حيث تذكر الروايات الشفوية المنقولة بأن القائد تيراماكان قبض بنفسه على عدد كبير من العبيد، وأن فاكولي دومبيا كان يملك في إمارة سولون(Solon)الواقعة على الضفة اليمنى للنيجر، بلدا بأكمله للعبيد يسمى دوندوكو (Doundougou) وكان يبيع معظم أولئك العبيد لشعب الماركا من السوننكي مقابل الملح. وكان أهل فاكولي وأتباعه عندما يزورون مدينة دوندوكو، فإنهم يضعون ملاجم على أفواه من يجيدونهم في طريقهم مثل الملاحم التي توضع في أفواه الخيول والجمال، ثم يأخذونهم إلى بلاد الماركا أو إلى منطقة الساحل في الشمال من أجل مقايضتهم بالملح الذي يجلبونه إلى فاكولي[3].

(**1**)لقد حكم سوندياتا إمبراطورية مالي بين سنتي 1236 و 1255 ميلادي، بينما ألف ابن سعيد كتابه بين 1228 و1234 م.

(**2**) لقد كانت عملية صيد العبيد تكتسي اهمية قصوي بالنسبة لممالك وامبراطوريات المندي(غانة، مالي،الصوصو) إلى درجة أن المهمة الاساسية التي كانت توكل لجيوشها هي شن غارات من أجل القبض على العبيد

.**Meillassoux (Claude**),Rôle de l'esclavage dans l'histoire de l'Afrique occidentale , In Revue :

Anthropologie et societés, Volume2, Numéro1, 1978, p118 dans site web :

http://id.erudit.org/iderudit/00875ar

(**3**)Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome 1,p203

(4)Monteil(Vincent) ,L'islam noir, p91

(5)youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome 2,p28

(6) Op.Cit,p25.

(7) Tidiane N'diaye , Op.Cit, p32.

كما أن العشائر المندية في عهد سوندياتا أو من سبقه على عرش مندي، كانت تقوم قوتهم على عدد العبيد التي يملكونها والمعرفون بديون (Dyon) حيث كان رؤساء العبيد التابعين لكل عشيرة والملقبون بديون - سونديجي (Dyon – Sondidji) يلعبون دورا أساسيا في تقوية العشيرة، ذلك أن العبد من المندي يصبح حرا بعد ثلاثة أجيال، مما يعطي للعشيرة التي كانت تملكه قوة إضافية[1].

وبالتالي فإن انتشار العبودية في بلاد مندي كان مدفوعا بأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، وبذلك أصبح الإنسان المندي الضعيف يقع تحت نير عبودية رجل مندي آخر أقوى منه.إن هذه الوضعية لم تكن لترق سوندياتا الذي كان يسعى إلى توحيد جميع بلاد مندن، وهو بحاجة لكل أبنائه أحرارا ومتآخين وسواسية. لهذا فبمجرد أن عين كأول منسا لإمبراطورية مالي، صرح سوندياتا في خطابه الشهير قائلا: « إن الحرية للجميع، فلنعش في تضامن وفي احترام لبعضنا البعض، والعظمة لمندن ... فمن أراد التجارة فليتاجر، ومن أراد الزراعة فليمارسها، إن المندن يسع الجميع. »[2]

لهذا كان على سوندياتا أن يعلن عن قرار جريء لم يسبقه إليه أي أحد من ملوك إفريقيا أو العالم من قبل، وهو الإعلان عن إلغاء العبودية ومنعها في كل مندن، ثم وسعها بعد ذلك إلى كل المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية المالية[3].

لكن لا بد أن نشير إلى أن سوندياتا لم يمنع اتخاذ العبيد وكسبهم لاستخدامهم كخدم في البيوت، لكنه منع تجارتهم منى خلال أسر أشخاص من مندي بيعهم إلى التجار البربر أو العرب، أو مقايضتهم بالملح أو أي سلعة أخرى، وجعل عقوبة من يقوم بذلك الإعدام[4].

كما حاول سوندياتا أن يعيد للعبيد هيبتهم الاجتماعية بعدما أعاد لهم حريتهم، وذلك من خلال تعيين أحد رؤساء العبيد المعروف بجومبا (Djomba)[5] كمبعوث وممثل شرعي له في

---

(1) Tidiane N'diaye , Op.Cit, p3.

(2) جومبا هو لقب لرئيس العبيد و ليس اسم شخص

. **(3)Youssouf tata cissé et Wa kamissoko** , Op.cit,p29.

إقليم واسولون الذي كان يسكنه الفلاته، وزوده بصلاحيات وسلطات كبيرة تمنحه الحق في وضع الحديد لكل الفلاته الذين ينطقون بكلمة جون (Djon) والتي تعني عبد، كما أوكلت له مهمة قتل كل من ضبط وهو يقبض على شخص بغرض استعباده أو ثبت عنه أنه استعبد شخصا. وقد طبق الجومبا هذه التعليمة بصرامة كبيرة إلى درجة أنه لقب بـ" تاغان منسا " أي ملك منطقة تاغان[1].

كما كلف سوندياتا قائديه الشهيرين، وهما فاكولي دومبيا، وتيراماكان مباشرة بعد معركة كيرينا بتوجيه جيشيهما نحو أقاليم البمبارا والفلاته في مناطق مثل جيتومو، بانان، بايا، غوانياكا، غانادوكو، بانينكو، كورولاميني وغيرها، حاملين معهم كلمة النظام والتي تمثل شعار حرب سوندياتا وهدفها وهي " الحرية للجميع، إلغاء العبودية، منع بيع الناس " وأعطاهم تعليمات بضرب النخاسين والمستعبدين بدون رحمة، وأينما وجدوهموأسرهم بعدما يتم تحرير عبيدهم[2]. كما زود سوندياتا مدينة دوندوكو بإدارة مستقلة، وخلص سكانها من سيطرة أسيادهم[3].

د. تنظيم الاقتصاد:

إن التنظيم الإداري الذي وضعه سوندياتا كيتان ساهم بقدر كبير في تنظيم الاقتصاد ونجاعته، حيث عمد إلى توظيف ثروات كل منطقة من مناطق الإمبراطورية في الرفاهية الاقتصادية للدولة، واستغلالها بطريقة عقلانية وبراغماتية. فالغرب خصص لإنتاج المواد الغذائية والزراعية، والوسط خصص لإنتاج الحديد، بينما كان الشمال يزود الإمبراطورية بالملح، ويبقى الجنوب وغاباته مصدرا لجلب البطاطا، ونواة الكولا، ومختلف الدرنيات.

ولقد كانت إمبراطورية مالي تعاني كثيرا من نقص الملح، وكانت هذه المادة تتواجد في منطقة الساحل بالشمال أين تسيطر على مناجمه القبائل البربرية. كما انه بعدما ألغى سوندياتا تجارة الرقيق، فإنه لم يعد ممكنا مقايضة هذه المادة بالعبيد، لذلك كان عليه أن يستغل ثروات البلاد والبحث عن مصادر أخرى للتجارة بها ومقايضتها بالملح عوض العبيد. ولما

---

(1) Ibid,p25.,p30

(2) Ibid, p25.

(3) **Rosa Amelia plumelle - Vribe** , Traite des blancs traite des noirs : Aspects méconnus et conséquences actuelles. Editions l'harmattan, paris, 2008, p50.

كانت أرض مالي غنية بالذهب، فقد دعا سونديانا في خطابه الذي ألقاه عند الإعلان عن ميلاد الإمبراطوريةإلى ضرورة البحث عن مناجم الذهب واستخراجه من أرض مندن التي تزخر به[1].أما بالنسبة لمعدن الحديد، فقد أوكل مهمة استخراجه وصناعته إلىالأسرى الصوصو المعتقلين خلال حرب كيرينا، حيث أمر سونديانا بتسخيرهم للخدمة في الأفران الكبرى للحدادة والتعدين التي تعد مهنتهم الأصلية، وذلك تكفيرا عما قاموا به ضد مالي، لكنه حرص على أن يعاملوا معاملة طيبة للملتزمين بعملهم[2].

وقد ركز سونديانا كثيرا على تنشيط التجارة التي اعتبرها الشريان الحيوي للأمة من خلال تنشيط تجارة الذهب[3] وتنظيم التجارة النهرية، لكنه وجه اهتماما خاصا للنشاط الزراعي، حيث أدخل إلى مالي زراعة القطن والفستق وشجرة البابايا أو المانغو[4].كما عرفت الإمبراطورية إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا[5].

هذا وقد اهتم سونديانا كثيرا بتطوير أساليب تربية المواشي والرعي[6].وهكذا فقد عمل سونديانا طوال فترة حكمه التي دامت 25 سنة حسب ابن خلدون[7]، وواحد وعشرون سنة حسب دولافوس[8]، على تأسيس إمبراطوريةواسعة، وتدعيم أركانها، وتعزيز الوحدة الوطنية، و حماية ترابها وشعبها. كما حرص على إسماع صوت مالي الجهات الأربعة من العالم كما جاء في خطابه الشهير الذي ألقاه بعد تنصيبه منسا لكل مندن[9]، وكان له الفضل في ارتقاء عائلة كيتا عندما حصر الحكم في مالي على ذريته من آل كيتا. وبهذا يكون قد حجز لهذه العائلة

---

(1)Youssouf tata cissé et Wa kamissoko , La grande geste, tome 2,p28

(2)Ibid,p28

(3)Al hassane chérif , L'importance de la parole Op.Cit, p29.

(4)Tidiane N'diaye , Op.Cit, p32.

(5) Rosa amelia plumelle – Vribe , Op.Cit, p51

(6)Tidiane N'diaye , Op.Cit, p32

(7).العبر، مج6، ص267

(8) يحددها دولافوس بواحد و عشرين سنة على اعتبار أن بداية حكمه حسبه كانت في عام 1234م/631هـ، أي عندما استدعاه نبلاء مندن لقيادتهم في الحرب ضد مملكةالصوصو . بينما توفي حسبه سنة1255م/652هـ.

(Haut Sénégal-Niger, t2, p28)

.

مكانة في تاريخ مملكة مالي الإسلامية، وسمح لأبنائها بصناعة مجد لم يكن حكرا على مملكتهم، وإنما بقي ذخرا لكل الأفارقة السود فيما وراء الصحراء، ذلك أن هذه العائلة ورغم رحيل زعيمها الأكبر سوندياتا، إلا أنها خلفاءه من بعده استمروا في توطيد أركان الدولة وتوسيع حدودها،وإرساء دعائمها إلىأن بلغت أوجها، إلى غاية بداية القرن الثامن للهجرة/14م.

رابعا.دورها في ميدان الفنون:

لقد كان أحفاد سوندياتا كثيري الشبه بملوك المسلمين وملوك الشرق عامة من خلال ولعهم بالفن واكتسابهم لذوق جمالي رفيع. فلقد كان منساواتهم يستقبلون سفرائهم في قصورهم أين كانت تقام حفلات كبيرة، حيث كان كل وفد عن ولايته يأتي بنموذج فلكلوري خاص بمنطقته من أجل تسلية الملك، حيث كانت هذه الاستعراضات تعرف باسم كوتيبا (Koteba)، وما يزال هذا التقليد قائما إلى غاية اليوم في مدينة كيلا. وتقام خلال هذه الاحتفالات التي تعد التسلية المفضلة بالنسبة لملوك مالي أعابا بهلوانية تجسد دور الصياد الفاشل، أو خلافات الزوج مع زوجاته ومختلف مظاهر الحياة اليومية للمندي.كما تنشد بعض الأناشيد التي ظهرت في عهد والدة منسا موسى وهي نانا كونكو.[1]

صحيح أن هذه التقاليد الاحتفالية وجدت قبل وصول عائلة كيتا إلى الحكم، وربما قبل تأسيس دولة المندي، لكنها استمرت في عهد أحفاد سوندياتا وخاصة عهد منسا موسى وأخوه سليمان، حيث وصف ابن فضل الله العمري جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في مجلس منسا موسى، عندما يقول: ((وبين يديه (أي منسا موسى) أناس يرقصون وهو يتفرج عليهم ويضحك منهم)).[2] كما ذكر ابن بطوطة جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في يوم العيد.[3]

أما الموسيقى فقد كانت من أهم الأشياء التي ارتبطت بالحياة داخل القصر الملكي لعائلة كيتا، وقد ظهرت لأول مرة في عهد سوندياتا كيتا وما زالت قائمة إلى اليوم، وهي ترافق الأناشيد

---

(1) المصدر السابق، ص 115.

(2) المصدر السابق،ص 686

(3) Niane(djibril Temsir) , Le soudan occidental, au temps des grandes empires, p219.

(4) تقول الروايات الشفوية بأن هناك امرأة ساحرة كانت تعزف بهذه الآلة عند كل فجر بالقرب من هذا الكهف، وأنها كانت تؤثر في المحارب الذي حاول أن يملكها وهو تيراماغان، فذهب للبحث عن أصدقائه وهم ثلاث أشهر الرواة الشفويين في مندي بالإضافة إلى ثلاث صيادين من كوني، فتوجهوا معه للقبض على هذه المرأة الساحرة التي تزوجها

والملاحم التي تروي أمجاد العائلة الملكة خلال المناسبات، والتي تتخللها الأساطير والمعروفة بالجيلي، أو الروايات الشفوية. وكانت تعزف هذه الموسيقى عن طريق آلة الكورا(La kora) وهي قيثارة صغيرة ذات طابع إفريقي.[1] وقد ظهرت آلة الكورا سنة 1235م، أي في العام الذي انتصر فيه سونديانا على ملك الصوصو، وتحتوي هذه الآلة على واحد وعشرين وترا، وكل وتر له دور معين، وفي مقبض الآلة يوجد تسعة ثقوب مفتوحة إلى الخارج، أما الخشب المركزي فهو يمثل العمود الفقري للآلة، بحيث تشبه هذه الآلة جسم الإنسان إذ تتوفر على قلب ولسان ويد وغيرها، وقد اكتشفت هذه الآلة من طرف قائد سونديانا تيراماغان عندما كان في كهوف كنسالة المتواجدة في مملكة كابو(غمبيا الحالية) خلال غزوه للغرب.

و كانت النصوص التي يتم إنشادها على أنغام هذه الآلة ذات طابع شعري ملحمي، حيث يلقي المنشد قصيدته على شكل أغنية أو أنشودة هي مزيج بين الغناء و الرواية (اي ترانيم)، إذ يضبط إيقاع كلماته مع إيقاع الآلة التي ترافقه . كما أن اختيار كلمات أناشيده لم يكن اعتباطيا و لا عشوائيا، بل لابد أن يوافق ايقاع الموسيقى التي تصدرها آلة الكورا[2].

أن الرواة الشفويون يمكنهم استعمال ثلاث انواع من التعبير خلال عرض ملحمتهم، وهي: الرواية، الانشاد بالإضافة الى الغناء المرفوق بالموسيقى باستعمال آلة الكورا طبعا، و يوجد هناك شخص واحد فقط قادر على القيام بهذه الاعمال الثلاثة معا و هو زعيم الرواة. أما النساء الذين يطلق عليهم لقب جيلي ـ موسو (jeli-musu) الذين عادة لا يروون الاناشيد و الاشعار، لكن يمكنهم غناء بعض الملاحم لكن بمفردهم أو بالاشتراك مع امرأة أخرى بحيث تساعدها عندما تتقطع كلماتها[3].

و تعرف الفرق الموسيقية التي تعزف فيها آلة الكورا المرافقة للأناشيد باسم (بالا فاسيكيBalla Fasseke)، وهي الفرقة الموسيقية التي نسب للراوي الشخصي والرسمي للإمبراطور سونديانا كيتا، و الذيي كان أول من عزف على هذه الآلة، وتتفرع إلى ثلاث طبوع أو مواضيع هي:

---

(1) فيما بعد تيراماغان وأعطى لأحد أصدقائه الرواة وهو"جيليمالي أولي دياباتي" الآلة الموسيقية ، وهذا الأخير نقلها لابنه كانبا (Kanba) و منه انتقلت إلى الرواة الآخرين.

(2) **John Johnson, Peter Bryant, Mihaela Bacou, Brunhilde Biebuyck**, Griots Mandingues : Caractér- - istiques et rôles sociaux, ,Op.Cit,p17.

(3)Ibid,p9

. دياندیون(Diandion): و هي اناشيد تروي أمجاد القائد فاكولي[1] ابن أخت سومنغورو كونتي الذي انظم إلى قوات سونديانا، وغزا بلاد الجولوف، وهي تعد تراثا محفوظا بالنسبة لأحفاده.
. بولوبا(Boloba): وهي الموسيقى الخاصة بسومنغور كانتي، وقد ظهرت بعد معركة كيرينا، وأقرها سونديانا كنشيد وطني لكل الماندينغ.
. دوغا(Douga): وهي أغنية المحاربين والموسيقى الخاصة بهم، تنشد خلال المعارك[2].

و لقد أفادتنا شهادة ابن بطوطة بجانب من هذه الاستعراضات التي كانت تعزف في قصر الملك منسا سليمان، فذكر آلة الطرب التي تصنع من القصب القرع وقال بأن لها صوت عجيب، والتي قد تكون آلة الكورا التي تحدثت عنها الروايات الشفوية، خاصة أنه ذكر الغناء الذي يصاحبها خلال احتفالات يوم العيد، أين كانت تتضمن هذه الأغاني مدح السلطان وذكر غزواته وأفعاله وتغني معه النساء والجواري،كما ذكر ضرب الطبول والأبواق و الأنفار .[3]

و لقد عرفت الساحة الفنية لمالي آلات موسيقية أخرى مثل البلافون (Balafon) البولون(Bolon) والسمبي (Simby) وعرفت إمبراطورية مالي الملاحم الخاصة بسونديانا كأهم الفنون الموسيقية، وتعرف هذه الملاحم باسم سونجاتا فاسا (Soundjata fassa) وهي سيمفونية موسيقية خاصة بكل أبطال معركة كيرينا، حيث تم إنشاء ما يعرف ببالا فاسيكي (Balla Fasseke)، وهي الفرقة الموسيقية التي تمثل الراوي الشخصي والرسمي للإمبراطور سونديانا، وتتفرع إلى ثلاث طبوع أو مواضيع هي:

. **دياندیون(Diandion):** وتروي أمجاد القائد فاكولي ابن أخت سومنغورو الذي انظم إلى قوات سونديانا، وغزا بلاد الجولوف، وهي تعد تراثا محفوظا بالنسبة لأحفاده.

. **بولوبا(Boloba):** وهي الموسيقى الخاصة بسومنغور كانتي، وقد ظهرت بعد معركة كيرينا، وأقرها سونديانا كنشيد وطني لكل الماندينغ.

---

(1) **فاكولي** هذا هو جنرال ملك الصوصو (سونغومرو . كونتي) و ابن اخته ، لكن سومنغورو اخذ منه زوجته بالقوة وتزوجها مما جعل هذا القائد يتمرد على خاله و يلتحق بقوات سونديانا كيتا مما ساهم في انتصاره على ملك الصوصو وتحرير مملكة مالي، للاطلاع أكثر انظر:

Doumbia Fakoly,Fakoli , prince du Mande, Récit historique. Editions L'harmattan, Paris, 2003, Pp49, 50 et 51.

(2)Niane(djibrilTemsir) , Le soudan occidental, Op.Cit, p219.

(3) ابن بطوطة، مصدر سابق ، ص ص 684 و686.

. **دوغا(Douga):** وهي أغنية المحاربين والموسيقى الخاصة بهم، تنشد خلال المعارك.[1] ولقد أفادنا ابن بطوطة بجانب من هذه الاستعراضات التي كانت تعزف في قصر الملك منساسليمان، فذكر آلة الطرب التي تصنع من القصب القرع وقال بأن لها صوت عجيب، والتي قد تكون آلة الكورا التي تحدثت عنها الروايات الشفوية، خاصة أنه ذكر الغناء الذي يصاحبها خلال احتفالات يوم العيد، أين كانت تتضمن هذه الأغاني مدح السلطان وذكر غزواته وأفعاله وتغني معه النساء والجواري،كما ذكر ضرب الطبول والأبواق والأنفار.[2]

ج.في الميدان الجغرافي (الكشوفات)

هل اكتشف الماليون القارة الامريكية؟

يقول ابن الوردي[3] عن المحيط الأطلسي الذي كان يدعى ببحر الظلمات: «ويسمى المظلم لكثرة أهواله وصعوبة متنه فلا يمكن أحد من خلق الله أن يلج فيه، إنما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسي وظلامه كدر وريحه ذفر، ودوابه متسلطة، ولا يعلم ما خلفه إلا الله تعالى، ولا وقف منه بشر على تحقيق خبر»[4]. لكنه ربما لم يكن يعلم عندما كتب ذلك، بأن مؤرخا معاصرا له وهو ابن فضل الله العمري (المتوفى سنة 749 هـ/1349م) ذكر بأن أحد ملوك السودان يكون قد اجتاح هذا المحيط سنة 707هـ/1307م ولم يعد.

فقد ذكر العمري عن ابن أمير حاجب بأن الملك منسا موسى قد أسر له بأنه كان قبله ملك وهو أبو بكر الثاني، لم يكن يصدق أن البحر المحيط لا يمكن الوقوف على آخره، فأراد الوقوف على هذا الأمر وتحمس له، وجهز مائتا مركبة مملوءة بالرجال، وأخرى مثلها مملوءة بالذهب والماء وما يحتاجه المسافر من زاد ما يكفيهم لسنين، وقال للمسافرين فيه لا ترجعوا

---

(1) Niane(djibril Temsir), Le soudan occidental, Op.Cit , p219.

(2) المصدر السابق، ص ص 684 و 686 .

(3) هو الشيخ الفقيه النحوي القاضي المؤرخ زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري البكري المشهور بابن الوردي ،عاش بين(691 -749 هـ/ 1292 -1349 م) من شعراء القرن الثامن الهجري. ولد في المعرة غرب مدينة حلب بالشام (سوريا) زمن المماليك سنة 689 هـ ((وقيل أنه ولد سنة 691 هـ)) كان من علماء اللغة العربية والنحو والفقه والأدب والتاريخ كما دل على ذلك تلك المصنفات المتنوعة له، اشتهر بالزهد والورع وحسن الخلق وطيب المعشر، فكانت له مهابة في قلوب معاصريه.تولى القضاء في منبج شيزر وحلب، ثم ما لبث أن ترك ذلك كله وعزل نفسه لمنام رآه كتب أبياتاً... =في ذم القضاء وأهله، ثم اشتغل بالتعليم والتأليف حتى شاع ذكره وطار صيته في البلدان، توفي بالطاعون سنة 749 هـ/1349م .

(4) ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر)، خريدة العجائب و فريدة الغرائب.طبع بمصر، سنة 1922، ص 54

حتى تبلغوا نهاية هذا البحر، أو ينفذ زادكم وماؤكم، فساروا وطالت مدة غيابهم إلى أن عاد مركب واحد منها، فسأل كبيرهم عن أخبار رفقائه، فأخبره بأنهم لما ساروا زمنا طويلا في البحر ظهر لهم في وسط البحر واد ذا مجرى قوي، فاختفت في غمرتها كل المراكب ما عدا مركبته التي لم تدخل ذلك الوادي، ورجعوا من حيث أتوا.لكن هذا الملك لم يعجبه كلام ذلك الربان، فجهز ألفي مركبة، ألفا له ولمرافقيه وألفا للزاد والماء، ثم استخلف ابنه منسا موسى وركب البحر المحيط وسافر فيه ولم يعد.[1]

ولم يكن العمري هو المصدر الوحيد الذي تكلم عن هذه القضية، حيث نجد رواية مشابهة لها في المصادر الشفوية السودانية، ومفادها أن الإمبراطور المالي أبو بكر الثاني قام بإرسال حوالي330 قارب باتجاه سواحل أمريكا، فرجع ربان واحد من هذه الحملة التي تكون قد اجتازت المحيط.[2] وحسب الرواية الشفوية دائما فإن سكان القارة الأمريكية يكونوا قد رحبوا بالزعيم المالي وهنؤوه على انجازه، أما هو فقد بعث رسولا إلى مالي ليخبرهم بوصوله وتنصيب أخاه منسا موسى ملكا على مالي.[3] وبهذا يحق لنا أن نتساءل هل فعلا تمكنت عائلة كيتا من اكتشاف القارة الجديدة ثلاثة قرون قبل الرحالة الايطالي كريستوف كولومبوس؟

في الحقيقة نحن نجهل سبب انفراد العمري بسرد تلك الرواية، وعدم نقلها عنه من طرف المصادر العربية، فحتى ابن خلدون الذي يعد مصدرنا الكبير عن ملوك مالي منذ برمندانه، لم يكلف نفسه عناء نقل هذه المعلومة عن العمري رغم أنه توفي بعده بحوالي ستين سنة (توفي ابن خلدون سنة 808هـ/1406م)، وهذا ربما لعدم تصديقه لتلك الرواية،كمالم يصدقها معظم المؤرخين الغربيين الذين اعتبروا القصة مجرد حكاية هزلية[4]، ومنهم من همّشها

---

(1) العمري، المصدر السابق، ص ص120و 121.

(2) Xavier van der stappen ,L'Afrique du fleuve de Niger, le Dioliba en canoé. Editions l'Harmattan, Paris, 1996, p151.

(3) Doudou N'diaye rose ,l'histoire de l'épopée Mandingue. In site ***: http://www.si.umish.edu***. Consulté le : 20-06-2008

(**1**) حول هذا الموضوع انظر:

Bernard Lugan ,God bless Africa ,Contre la mort programmé du continent noir.2ème édition, Editions Carnot, New York, USA, 2003, pp de58 au151

(2) Leyden et Murray (Hugh) ,Histoire complète des Voyages et découvertes en Afrique, pp86,87.

(3) **Xavier van der stappen** :Op.Cit, p152 .

وأهملها عن قصد حتى لا تعاد كتابة التاريخ من جديد،[1] لكننا في المقابل نرى بأن هناك عدة دلائل وقرائن تجعل رواية العمري تقوم على أسس تاريخية وعلمية معقولة.

فالرواية الشفوية تقول بأن أبا بكر الثاني اعتمد في حملته تلك على خبراء من العرب المسلمين، وأنه انطلق من خليج غامبيا واختفى في عرض السواحل البرازيلية نتيجة تمرد بعض الرواة الشفويين(المنشدون) الوثنيين الذين كانوا يرافقونه بسبب تنكرهم لدور العلماء العرب المسلمين في هذه الرحلة نظرا للصراع الخفي القائم آنذاك بين المسلمين والوثنيين داخل القصر الملكي وبين حاشيته.[2] وهنا يمكننا أن نعود إلى خبرة وتفوق العرب المسلمين في الملاحة البحرية خلال العصور الوسطى، والذين سبق لهم أن خاضوا تجارب مماثلة حسب المصادر العربية حتى قبل رحلة أبي بكر تلك. فيذكر الحميري[3]بأن أحد أهالي الأندلس يدعى بالخشخاش، قام هو وجماعة من فتيان قرطبة وأحداثها بركوب مراكب واستعدوها ودخلوا البحر المحيط، وغابوا مدة ثم أتى بغنائم واسعة وأخبار مشهورة.[4]

كما يروي ابن الوردي بأن جماعة من أهل أشيونة (لشبونة) وهم ثمانية أنفس وكأنهم بنو عم، اشتروا مركبا كبيرا وحملوا فيه من الزاد والماء ما يكفيهم لمدة طويلة، وركبوا متن هذا البحر ليعرفوا ما في نهايته، وقرروا ألا يرجعوا حتى ينتهوا إلى البر الغربي أو يموتوا، فسافروا فيه لمدة أحد عشرة يوما حتى دخلوا إلى بحر عظيم وموجه كبير كثير القروش فأيقنوا بأن مصيرهم الهلاك فرجعوا مع البحر سالكين الجنوب لمدة أثني عشرة يوما فدخلوا إلى جزيرة

---

(4) هو محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري .عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م. ولد بمدينة سبتة، يرجح أنه كان كاتبًا يعمل في توثيق العقود وترجع شهرة الحميري إلى كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار و هو معجم جغرافي لا يخلو من سرد بعض الأخبار والوقائع التاريخية، ومرتب على حسب الحروف. وعلى الرغم من أن الحميري نقد الإدريسي نقدًا شديدًا في بداية كتابه، إلا أنه نقل عنه كثيرًا وخصوصًا في وصف أسبانيا وقدا هتم (الروض المعطار بوصف المدن والأقطار والجزر وبعض المحيطات والبحار)، وقد وصف كثير من الباحثين الحميري بأنه نقل كثيرًا عن غيره ومع ذلك فإليه يرجع الفضل في حفظ كثير من الروايات التي تُعد أصولها مفقودة.

(5) الروض المعطار، ص 509.

(4) الروض المعطار، ص 509.

فيها عدد لا يحصى من الغنم طعمها مر، وبها ماء عذب ولا يوجد بها بشر، فتركوها بعدما أخذوا جلود الأغنام معهم وساروا في البحر إثنتا عشرة يوما أخرى إلى جهة الجنوب حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة فقبض عليهم أهلها وهم رجال شقر الألوان طوال القد، وأخذوهم إلى ملكهم الذي كلمهم عن طريق ترجمان، ولما عرف سبب خوضهم للبحر المحيط ضحك منهم ساخرا وقال لهم : «إني وجهت من عندي قوما في هذا البحر ليأتوني بخبر ما فيه من العجائب، فساروا مغربين لمدة شهر ثم رجعوا بدون فائدة» [1]. والملاحظ على رواية ابن الوردي أن ملك الجزيرة الذي كلم الإخوة كان لديه مترجم يتقن العربية، وهو دليل آخر على أنهم لم يكونوا من وصل إلى ذلك المكان في المحيط الأطلسي.

ويذكر المؤرخ التونسي عثمان الكعاك بأن البربر ذهبوا إلى القارة الأمريكية في أول الأمر مع القرطاجيين، ثم مع مسلمي الأندلس الذين كانوا يترددون عليها، كما تمكنوا من وضع أقدامهم في العالم الجديد حتى قبل مجيء الفنيقيين أي خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأن هناك قبائل كاملة في أمريكا تحمل أسماء بربرية، حيث توجد قبيلة مطماطس مثلما توجد ببلاد المغرب قبيلة مطماطة، وتوجد قبيلة ماية التي تقابلها قبيلة لماية، وقد استقى هذا المؤرخ معلوماته من ضابط أمريكي كتب عن البربر.[2]

فهذه الشهادات كلها تبين بأن المسلمين كانت لهم سوابق في ميدان الملاحة وخاصة فيما يخص المحيط الأطلسي الذي خبروه جيدا، فكان اعتماد أبي بكر الثاني عليهم في حملته قائم على سابق معرفته بهذا الموضوع، مثلما اعتمد كريستوف كولومبس على خبرة أحمد بن ماجد بعد ثلاث قرون لاكتشاف أمريكا.

وهناك دلائل وشواهد مادية تجعل رواية العمري معقولة، منها اكتشاف ثلاث كتابات في الولايات المتحدة الأمريكية بعضها مكتوب بالحروف الإفريقية بلغة المندي وبعضها الآخر مكتوب بالعربية وبالخط الكوفي، وفي بحر الكاراييب أين ما يزال يعيش الهنود الحمر إلى غاية اليوم توجد قبائل مازالت تكتب بحروف مالنكية وهي لغة أهل مالي.[3]

---

(1) **ابن الوردي (سراج الدين عمر)**، خريدة العجائب وفريدة الغرائب. مطبعة مصطفى البائي الحلبي و أولاده ، مصر، 1341هـ/1922م، ص ص 18 وما يليها.

(2) **الكعاك عثمان**، البربر، نشر مؤسسة تامغناست، تونس، 1375 هـ، ص12 .

(3) **علي محمد الغامدي**، مالي و القارة الأمريكية. مقال نشر في الموقع الالكتروني: ***www.wekipedia_mali :org*** نشر يوم: 2007.09.10

وخلال اكتشاف كريستوف كولومبس للقارة الأمريكية أخبره واحد من الهنود الحمر بأنه قد سبقه بمدة طويلة قوم ذووا بشرة سمراء قدموا من البحر، لكن كريستوف كولومبس تجاهل الأمر ولم يعره اهتماما كبيرا، إلا أنه وجدت في يومياته الخاصة باليوم الثالث بأنه وجد بالقارة الجديدة معدن يتمثل في خليط من الذهب والنحاس والفضة، وهو معدن كان التجار السودان يصدرونه إلى إسبانيا.[1] كما وجد هذا الرحالة الجنوي بالقارة الجديدة آثارا وخاصة ثماثيل مماثلة لتلك التي كان يصتعها المندي،[2]

و في عام 1966م، وخلال المهرجان العالمي للفنون السودانية في دكار بمساهمة ليوبولد سيدار سنغور(Leopold Sedar Senghor)[3]عرضت بصفة علمية ورسمية تماثيل مصنوعة بالطين المشوي(الفخار) تعود إلى فترة ما قبل الكولومبية (Précolombienne)[4] والتي تمثل كل الأصناف الفنية السودانية المعروفة في إفريقيا.[5] وهناك عدة كتابات غربية وأمريكية تقر هذه الحقيقة وتؤكدها مثلما جاء في كتاب ايمانويل ايريسكو إبيرا (Emanuel Erisko ebira)بعنوان التاريخ القديم لاحتلال المكسيك (Historia antigua de la conquesta de mexico) بأن أمريكا الوسطى كانت عموما و البرازيل خصوصا كانت عبارة عن مستعمرات لشعوب سوداء جاؤوا من إفريقيا.و هناك كاتب أمريكي يدعى ليون فرنيل، كان أستاذا بجامعة هارفارد الف كتابا سنة 1920م بعنوان إفريقيا واكتشاف أمريكا (Africa and the discovery of america) ذكر فيه بأن كريستوف كولومبس أشار إلى وجود هناك مندين في شمال ووسط القار الأمريكية حيث تزاوجوا مع قبيلتين من قبائل الهنود الحمر.[6]

---

(1)Tidiane N'diaye, Op.Cit, p49.

(2) Milet(Eric) et Manaud(Jean-Luc) , Mali. Editions Olizane, Genève, 2007, p34.

(3) هو شاعر ،كاتب ورجل سياسي سنغالي، ولد يوم 09 أكتوبر 1906 م . كان أول رئيس سنغالي (بين 1960و.1980م)، كما كان أول إفريقي جلس بالاكادمية الفرنسية، وكان أيضا وزيرا في فرنسا قبل استقلال بلاده، خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ارتبط بعدد من المثقفين الأفارقة بالخارج وانشؤوا جريدة الطالب الأسود والتي خلالها جاء بمصطلح نغريتود(Négretude) أو السودائية التي يشرحها بما يلي (السودائية هي بكل بساطة أن تعترف بأنك أسود، و تقبل مصيرك كأسود، و بتاريخك و ثقافتك).

(4) إن الحضارة ما قبل الكولمبية أو ما قبل الاسبانية (Préhispanique) يقصد بها الفترة التي ساد فيها السكان الأصليون في أمريكا اللاتينية قبل اكتشافها من طرف كريستوف كولومبوس.

(5) Tidiane N'diaye ,Op.Cit, p49.

(6) علي محمد الغامدي، المرجع السابق.

ويذكر الأستاذ إيفان فان سرتيما (Ivan van Sertima)[1] مؤلف كتاب بعنوان: جاؤوا قبل كولومبس(They came befor Colombus) الذي يتكلم فيه عن أمريكا ما قبل الكولومبية، بأنه لا يريد أنيثبت بأن الأفارقة هم من اكتشفوا القارة الأمريكية، لكن كانت لهم اتصالات معها قبل الجميع، وهؤلاء الأفارقة يعتقد بأنهم مصريو بلاد النوبة. وحسب فان سرتيما دائما فإن هذه الهجرة الإفريقية كان لها دور كبير في صنع تلك التماثيل السوداء، ويضيف بأن الشعوب ذات الأصول الإفريقية في المكسيك، فنزويلا، البيرو،كولومبيا، والهندوراس، فقد بقوا يحتفظون بالشعور بأن أغلبية سود أمريكا من غير الميلانيزيين (Mélanisiens)[2] كانوا موجودين في القارة الأمريكية قبل الأوربيين.[3]

وعموما فإن قضية اكتشاف للقارة الأمريكية من طرف أحد أفراد عائلة كيتا المالية، لم يعد من المواضيع الهزلية والمضحكة كما يريد بعض المؤرخين الغربيين أن يصوروه لنا في محاولة منهم لإخفاء الحقائق التاريخية التي تزعجهم، لأن هذه الحقائق كفيلة بجعل التاريخ الأمريكي كله يرتبط بالشعوب السوداء حسب ما يذهب إليه الانتروبولوجي السنغالي تيديان نديايي (Tidiane N'diaye)[4].

فلقد كتب الأستاذ النرويجي بورن روا ربي (Bjorn roar bye) مقالا بعنوان (أبو بكر الثاني اكتشف أمريكا قبل كريستوف كولومب) جاء فيه بأنه في سنة 1982م ذهب في حملتين إلى جزر مالديف مع المستكشف تور هيرداهيل (Thor Hayerdahl) وعند عودته إلى أوربا سأل هذا المستكشف هل سبق له وأن سمع بملك أسود يدعى أبا بكر الثاني فأجابه بالإيجاب، وهو ما شجعه على البحث أكثر عن هذا الرجل، فبحث في الانترنت، واتصل بالمؤرخين والأثريين والجغرافيين وغيرهم، وتبادل معهم الكتب والمعلومات، فتعجبت من ذلك الكم الهائل من

---

(1) هو أحد الكتاب الأمريكيين وأحد قادة ما يعرف بباراسونتريزم (Paracentrisme)، وهي حملة تبحث عن صيغة لإعطاء الثقافة والشخصية الإفريقية دور في التاريخ العالمي، ويعتقد أصحابها بأن الغرب يقللون من أهمية الحضارات الإفريقية، لذلك أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عنها.

(2) الميلانيزيين les Mélanisiens : هم شعب استقر في كاليدونيا الجديدة منذ حوالي أربعة آلاف سنة على الأقل، ويعتقد أنهم قدموا من منطقة بورنيو بالفلبين، وقد انتشروا أيضا في جزر المحيط الهادي .

(3) Pathé Diagne,Tarana ou L'Amérique précolombienne : Un continent Africain. Editions l'harmattan, Paris, 2010, p226.

(**4**) Op cit. p49

الأبحاث التي قاموا بها لعدة سنوات حول هذا الموضوع ودون أن يخفوا عنه الحقائق، فاستنتج في الأخير بأن هناك من يريد تعمد إخفاء جزء من التاريخ لغاية لا يعلمها إلا الله[1].

خاتمة:

يمكن أن نقول بأن منطقة غرب إفريقيا عموما، و مملكة مالي خصوصا لم تكن حبيسة ظروفها الطبيعية و الجغرافية و التاريخية، و لم تكن مجرد جغرافيا لحقبة تاريخية معينة، وإنما عرفت كيف تخرج من هذا الإطار الذي حبست فيه نفسها الكثير من الممالك الإفريقية، و تمكنت من أن تصنع لنا دولة و امبراطورية و حضارة ذات تنظيمات سياسية و اقتصادية ، و ساهمت في بنا الصرح الحضاري العالمي من خلال دورها الثقافي و الإنساني للأفارقة وللعالم أجمع.

إن الدور الذي اضطلعت به إفريقيا الغربية عموما و مملكة مالي خصوصا، في نشر الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، جعلها توجه أنظار الأفارقة نحو الشمال فجلب لها هذا التوجه الثقافة العربية الإسلامية و عادات و نمط حياة و فنون، امتزجت بالموروث الحضاري لغرب إفريقيا و أثمرت نموذجا لحضارة غرب افريقية بمميزات إسلامية.

قائمة الببليوغرافيا

أولا: المصادر و المراجع العربية:

1. **احمد بابا التنبكتي**، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، الجزء الثاني، دراسة و تحقيق : محمد مطيع، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، 1421هـ/2000م

ـ **أحمد بابا التنبكتي** ، نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1989م، جزءان

---

(1) Bjorrn Roar bye , Aboubakary 2roi du Manding découvert l'Amérique avant Christoph colombe. In : ***Afrique passion,*** éditions GAP, ville franche de Rouergue, 2002, N°3.

2. **الإدريسي (أبو عبد الله الشريف)**، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس. مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، تحقيق: إسماعيل العربي.الطبعة الأولى، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983م
3. **باري (محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم)**، المسلمون في غرب إفريقيا ، تاريخ وحضارة.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2007م، طبعة أولى.
4. **البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق)**، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة أولى،1981م
5. **البستاني (بطرس)**، دائرة المعارف البستاني. بيروت، 1886
6. **البكري(أبو عبيد الله بن عبد العزيز)**،المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، مقتبس من كتاب المسالك و الممالك. مكتبة أمريكا و الشرق ميزونوف، باريس، 1965م
7. **ابن بطوطة(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفى سنة779هـ)**، تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (المعروف بالرحلة). دار صادر،بيروت ،لبنان،1992م
8. **ابن خلدون(عبد الرحمان)**، كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م. مج6
9. **ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي):** كتاب الجغرافيا.تحقيق إسماعيل العربي.الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1982م،
10. **ابن الصغير:** أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق وتعليق: د. محمد ناصر، وإبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986،
11. **ابن عذارى**(المراكشي)، البيان المغرب. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني،محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة. دار الغرب الإسلامي، بيروت،1406هـ/1985م، الجزء الرابع (قسم الموحدين)،
12. **بن قربة(صالح)**، المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م
13. **ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر)**، خريدة العجائب و فريدة الغرائب.طبع بمصر، سنة 1922

14. **بوبكي سكينة**، الحركة العلمية بالهوسا في السودان الغربي خلال القرن19م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية و الحضارة الإسلامي، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2009/2008م. مخطوط.

15. **بوعزيز يحي**، :تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية. دار هومة، الجزائر، 2001م.

16. **حسن الوزان**، وصف افريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983 م.

17. **دافيد سون (بازيل)** : إفريقيا تكتشف من جديد. ترجمة، نبيل بدر وسعد زغلول، الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، د.ت

18. **دبوز محمد علي** ، تاريخ المغرب الكبير ، القاهرة، 1963، المجلد الثالث.

19. **الدرجيني(أبو العباس احمد بن سعيد)**، طبقات المشائخ بالمغرب. تحقيق وطبع:إبراهيم طلاي، مطبعة البعث الجزائر، دون تاريخ. الجزء الثاني.

20. **زبادية عبد القادر** ، الحضارة العربية ك التأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،1989

21. **الزركلي(خير الدين)**، الأعلام ، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980، الطبعة الخامسة، المجلد الأول.

22. **السعدي (عبد الرحمان)**، تاريخ السودان. طبعة هوداس، باريس 1964م

23. **السلاوي (أبو العباس الناصري)**، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. (ثلاثة أجزاء). تحقيق وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري. مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954م

24. **شعباني نور الدين**، دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية بين القرنين 5 و10هجريين، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2012/ 2013م. مخطوط.

25. **الشكري (أحمد)**، الإسلام و المجتمع السوداني(امبراطورية مالي) 1230 . 1430، المجمع القافي، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، 1999م.

26. **قداح نعيم**، افريقيا الغربية في ظل الإسلام ،مديرية التاليف و الترجمة لوزارة الثقافة و الارشاد القومي،مصر ، دون تاريخ.

ـ **قداح نعيم** ، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م.

27. **القلقشندي (أبو العباس أحمد)**:صبح الأعشى في صناعة الإنشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، 1333ه/1915م ، المجلد الثالث.

28. **شوقي عطاء الله الجمل**، الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م

29. **طقوش (محمد سهيل)**،التاريخ الإسلامي الوجيز، دار النفائس للطباعة والنشر، بيروت، 2002

30. **عز الدين عمرو موسى**، دراسات إسلامية غرب افريقية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، طبعة ثانية.

ـ **عز الدين عمر موسى** ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة.، دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م

31. **العمري (أحمد السويلم)**، الإفريقيون والعر ب لقاهرة، 1967م

32. **العمري(ابن فضل الله شهاب الدين)** المتوفى سنة 749هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق: عزة احمد عباس،الطبعة الأولى، أبو ظبي ، المجمع الثقافي،2002م، السفر الرابع.

33. **طرخان (إبراهيم علي)**، دولة مالي الإسلامية.دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973.

34. **قندوز قويدر**، الدولر الحضاري لمدينة جني ما بين القرنين 8و14ه/10 و 16م، مذكرة لنيل شهادة ماستر في التاريخ تخصص دراسات افريقية، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مكليانة، السنة الجامعية 2017/2016م

35. **الكعاك عثمان**، البربر، نشر مؤسسة تامغناست، تونس،1375 هـ

36. **كعت محمود** ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس.طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية و الشرقية، باريس، 1964م.

37. **لقبال(موسى)**، دور كتامة في تاريخ الخلافة الإسلامية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس للهجرة/11م. الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1979

38. **لومبار (موريس)** ، الإسلام في مجده الأول، ترجمة إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، طبعة أولى ، 1979

39. **متز (أدم)**، الحضارة الإسلامية ، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريدة ،دار الكتاب العربي، بيروت،1967

40. **مجموعة باحثين**، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتي نهاية القرن 19م عن معهد البحوث والدراسات العربية بغداد 1984م.

41. **معلوف لويس**، المنجد في اللغة . المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1960.

42. **المغيلي**، **(محمد بن عبد الكريم)** أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي، تحقيق: عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م

43. **االمقريزي(تقي الدين)** ،لذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك. تحقيق:جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 1420هـ/2000م .

44. **المغيلي (محمد بن عبد الكري** ، تاج الدين فيما يجب على الملوك و السلاطين، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الطبعة الاولى،دار ابن حزم للنشر و التوزيع، بيروت ، 1994م.

ثانيا: الدراسات و المقالات باللغة العربية:

1. **احمد الياس**، دور فقهاء الاباضية في اسلام مملكة مالي، ضمن موقع الكتروني: ***https://om77.net/forums/thread/34761***

2. آدم **أديبايو سراج الدين** ، المؤلفات العربية الكانمية البرنوية بين الأدب والتاريخ، ***مجلة قراءات افريقية***،مجلة ثقافية فصلية محكَّمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد الخامس عشر، محرم - ربيع الأول 1434 هـ ، يناير - مارس 2013

3. **التازي (عبد الهادي)**، المغرب في خدمة التقارب الافريقي العربي. في كتاب: ***العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية***، الصادر عن المنظمة العربية للثقافة و العلوم،تونس،1985م.،

4. **جمال بامي**، احمد بابا التنبكتي، موقع الكتروني: ***https://www.maghress.com/almithaq/6676***

5. **زبادية عبد القادر**، « القرن 16 وحركة التعليم في تنبكتو مركز التبادل الثقافي الأول مع العرب»، ***مجلة المؤرخ العربي***، العدد 14، (1980)، ص 224

6. **شعباني نور الدين** ، دور ملوك السودان في نشر الإسلام في السودان الغربي بين القرنين الخامس و العاشر الميلاديين، ***مجلة كان التاريخية***، العدد الرابع عشر، ديسمبر 2011م

7. **صباغ ليلى** ، أحمد بابا التكروري (963-1036هـ/ 1556-1627م)، موقع الكتروني:

https://www.arab-ency.com/ar

8. **عبد الله عيسى**، التعليم الإسلامي في غرب إفريقيا خلال القرن 16، ***مجلة البيان الالكترونية***، العدد228، موقع الكتروني: *http://www.albayan.co.uk*. تاريخ الاطلاع عليه: يوم لخميس 22 جمادى الأول 1439 هـ - الموافق ل 02/08/ 2018م
9. **الغامدي (علي محمد)**، مالي و القارة الأمريكية. موقع الكتروني : ***www.wekipedia_mali :org***
10. **معتز ياسين**،جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في ***مجلة الوعي الإسلامي***، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد523.
11. **مهدي ادامو**، الهوسا و جيرانهم بالسودان الأوسط، في كتاب ***تاريخ إفريقيا العام***، المجلد الرابع، الصادر عن اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988،
12. **هارون المهدي ميغا**، المراسلات العلمية و آثارها التعليمي،و الدعوي بغرب إفريقيا، ***مجلة قراءات افريقية***، العدد الثالث، ديسمبر 2008م

ثالثا: المصادر و المراجع باللغات الأجنبية:

1. **Abdoulaye(Bathily)**, Les portes de l'or, Le royaume de Galam. Editions l'Harmattan, paris, 1989.
2. **Al hassane chérif**, L'importance de la parole chez les Mandingues de Guinée. Etudes Africaines, Collection dirigé par Denis pryer. Edité par l'harmattan, paris, 2005.
3. **Bernard Lugan ,God bless Africa** ,Contre la mort programmé du continent noir.2ème édition, Editions Carnot, New York, USA, 2003.
4. **Bjorrn Roar bye**, Aboubakary 2roi du Manding découvert l'Amérique avant Christoph colombe. In : ***Afrique passion,*** éditions GAP, ville franche de Rouergue, 2002, N°3.
5. **Bwemba-Bong** ,Quand l'Afrique était l'or noire de l'europe,volume1,éditions Menaibuc, 2005
6. **Canal (jeans suret)**, Afrique Noire. 3ème édition, éditions sociales, Paris, 1968.
7. **Centre for linguistic and historical studies by oral tradition (CELHTO**, La charte de Kurukan fuga. Publié par : L'harmattan, Paris, 2008.
8. **Conrad(David)**, Empire of Medival west Africa :Ghana , Mali,and Songhay.Infobase publishing,New York, 2005

9. **Cornevin(Robert et Mariane),** Histoire de l'Afrique, des origines à la deuxième guerre mondiale, 4éme éditions. Petite bibliothèque Payot, Paris, 1964
10. **Cuoq (Joseph) ,** Histoire de L'islamisation de L'Afrique de L'ouest des origines à la Fin du XVIéme Siècle, Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris- 1984.
11. **Christophe(Daum**) ,Les associations de Maliens en France, Édition Karthala, Paris,1998
12. **Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard)** , Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005
13. - **Delafosse(Maurice) ,** Haut sénégal-Niger. Emile Larose, librairie Editeur, Paris, 1912, tome2
14. **Delafosse(Maurice)** , Essai de manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901
15. **Deschamps (Hubert)** , L'Afrique Noire précolonial. Presses universitaires de France, Paris, 1962
16. **Devey (Muriel**) , La Guinée ,Editions Karthala, Paris, 2009.
17. **Djegloul (Abdelkader) ,** Trois études sur Ibn Khaldoun, ENal- Alger, 1984
18. **D'hina (Atallah) ,** Les états de L'occident musulman aux XIII – XIX-XV siècles O.P.U, Alger, 19
19. **Doudou N'diaye rose** ,l'histoire de l'épopée Mandingue. In site *: **http://www.si.umish.edu***
20. **Diawara(Gaoussou) :**Aboubakari2, explorateur Manding. Edits L'harmattan, Paris, 2010
21. **Doumbia Fakoly, Fakoli** , prince du Mande, Récit historique. Editions L'harmattan, Paris, 2003
22. **Dubois (Felix)**, Timbuctoo the mysterious. Translated from the frensh by : Diana White, New York, 1896
23. **Elias(N)Saad** , Social history of timbuktu , The role of muslims scholars and notables.1400-1900, Cambridge university press, 2010
24. **Henri Barth** , Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a.Traduction de l'Almand par :Paul Ithier. Edité par :A.Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855

25. **Igue(John)**, Le territoire et l'état en Afrique. Les dimensions spatiales du développement. Editions Karthala, Paris, 1995
26. **K i-Zerbo et René Holenstein** , A quand l'Afrique . Éditions de l'ambe, 2003
27. **Kuyaté siriman** , La charte de Kurukan fuga. Radio Rurale de Guinée, Atelier régionale de concertation entre traditionalistes Mandingues et communicateurs des Radios rurales. (Kankan du 02 au 12 Mars 1998
28. **Labouret (Henri)** ,Histoire des noirs d'Afrique**.** Presses universitaires de France, Paris, 1950
29. **Mahmoud kati** , Tarikh el fettach. Traduit par: O.Hodas et Maurice Delafosse. Paris, 1913
30. **Mauny (Raymond**), Les Siècles obscurs de L'Afrique noire. Librairie Fayard. 1970
31. **MAUNY(Raymond),** Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge. Edition Ifan, Dakar, 1961.
32. **MAUNY (R)** ,Recueil des sources Arabes concernant l'Afrique occidentale du 13ème au 16ème siècle. Traduit par : Joseph Cuoq, Paris, 1975
33. .. **Meillassoux (Claude**),Rôle de l'esclavage dans l'histoire de l'Afrique occidentale, In Revue :***Anthropologie et societé***s, Volume2, Numéro1, 1978, p118 dans site web : ***http://id.erudit.org/iderudit/00875ar***
34. **Milet(Eric) et Manaud(Jean-Luc) ,** Mali. Editions Olizane, Genève, 2007
35. **Niane Temsir Djibril**, Recherches sur l'empire du mali au moyen âge, mémoire de l'institut national de recherche, Conakry, La Guinée, 1962
36. **Niane djibril temsir** , Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975.
37. **Ogunsolo(John Igué)** , Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008
38. **ONESCO** , Histoire de l'humanité (600-1492). Editions Unesco, Paris, 2008.
39. **Pathé Diagne**,Tarana ou L'Amérique précolombienne : Un continent Africain. Editions l'harmattan, Paris, 2010.
40. **Raimbault (Michel) et Kléna (Songo)**, Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991.

41. **Rosa Amelia plumelle - Vribe** , Traite des blancs traite des noirs : Aspects méconnus et conséquences actuelles. Editions l'harmattan, paris, 2008 .
42. **Sissoko(Birama)** ,La charte de l'ancien empire du Mali pourrait inspirer les Maliens d'aujourd'hui. In site : ***http://base.d-p-h.info/fr/fiches/organisme - 158.html***
43. **Sory (Kamara)** , Génie de parole, Essai sur la condition et le rôle Des griots dans la société Malinké. Editions Karthala, Paris, 1992
44. **Sow(Amadou aliou)** ,La Mauritanie mon pays natal. Editions l'harmattan, Paris, 2003
45. **Suzan B.Aradeon: Al-Sahili** (The historians Myth. of architectural technology tranfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Anneé1989, Volume 59, N°01
46. **Tidiane N'diaye,** La longue marche des peuples noirs. Edits : Publibook, Paris, 2007 .
47. **Trimingham (Spencer)** , The history of Islam in west Africa. Oxford university - press, London, 1963.
48. **Xavier van der stappen** ,L'Afrique du fleuve de Niger, le Dioliba en canoé. Editions l'Harmattan, Paris, 1996
49. **Yattara el Mouloud** , L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du 8éme au 16éme siècle. In site : ***http://www.histoire-afrique.org/article164.html?artsuite=67***
50. **Youssouf Tata Cissé et Wa kamissoko** , La grande geste du Mali, , Des origines la fondation de l'empire, Editions Karthala, Paris, 1988, tome

الفهرس العام

مقدمة 03
أولا: أهم الحواضر التاريخية و العلمية في غرب إفريقيا.....04
أ. الحواضر لغة.....04
ب. اهم الحواضر.....04
1. تنبكتو.....04
2. جني.....05
3. غاو.....06
4. ولاتة.....07
5. تاكد.....08
ثانيا: مظاهر الحياة الثقافية و العلمية في الحواضر الإفريقية.....09
1..مؤسسات التعليم.....09
2.مراحل التعليم.....09
3. لتعليم المهني (الحرفي).....15
4.الإجازات العلمية و الشهادات.....15
5. حركة التأليف و المؤلفين.....17
أ.في التاريخ.....17
ب .في الأدب 19
ج.في العلوم الشرعية و العقلية.....21
ثالثا: أثر الحياة العلمية على تطور غرب إفريقيا.....22
1. أثرها في نظام الحكم والعمران..... 22
أ.في نظام الحكم.....22
ب: أثرها في الميدان العمراني.....30
رابعا . المراسلات العلمية بين حواضر غرب إفريقيا و دورها العلمي و الثقافي....38
خامسا. اثر الحياة العلمية في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.....39
.1. اثرها في النظام الاقتصاد.....39
2.العملة.....42
3.المقاييس و الموازين و المكاييل.....43

4 . في الميدان الاجتماعي.....45
سادسا: نماذج من علماء غرب إفريقيا و إنتاجهم العلمي.....50
1.أحمد باب التنبكتي.....50
2. محمد بن محمود بن أبي بكر التنبكتي المعروف ببغيغ (باكايوكو).....56
3. عبد الرحمان السعدي.....58
4.الشيخ العاقب بن عبد الله الأنسمني الأغدسي.....58

المحور الثاني

دور مملكة مالي في نشر الحضارة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا.....60
أولا: تاريخ انتشار الإسلام و الثقافة العربية في مالي.....61
1 . دور التجار المسلمين خلال القرن الخامس الهجري.....61
2. مجهودات ملوك مالي.....64
3.دور الرحلات العلمية و الدينية في نشر الإسلام في مالي.....65
ثانيا.المظاهر الحضارية لمملكة مالي 67
1.في ميدان التعليم.....67
2. نشر اللغة العربية 72
3. نشر المذهب المالكي.....73
4 .حركة التأليف و القراءة في مملكة مالي.....75
5. دور مالي في العمران الإسلامي.....77

ثالثا. دورها في التنمية الاجتماعية و اقتصادية.....83
1 . التنظيم الاقتصادي.....83
2.في الميدان التجاري.....88
رابعا. إسهامات مملكة مالي في بناء الصرح الحضاري العالمي.....95.
1.في ميدان التشريعات(-كوروكان فوكا).....95
2.التنظيم الاجتماعي.....97
3. الحقوق والواجبات.....99
4.تنظيم الأسرة والعلاقات الاجتماعية.....100
5.تنظيم الملكيات.....103

6.حماية البيئة.....104
7.النظام السياسي.....105
8.التنظيم الإداري للدولة.....107
9. محاربة الرق.....109
10. تنظيم الاقتصاد.....112
رابعا.دورها في ميدان الفنون.....114
ج. في الميدان الجغرافي (الكشوفات).....117
هل اكتشف الماليون القارة الامريكية؟.....117
خاتمة.....124
قائمة الببليوغرافيا.....125
الفهرس العام 133